

الإفتاحية معركة وهمية

كنا نود أن لا نتعرض لهذا الموضوع ، لا اعتقادنا بأنه لا يستحق أن يتخذ منه المسلمون جبهة جديدة يفتحونها على أنفسهم، ولكن لأن هذه القضية بما -وصلت إليه- تصلح للاعتبار ؛ فقد أصبح لابد أن نقول فيها كلمة.

وقبل كل شيء نقدم مختصراً لهذه المشكلة التي تتلخص بأن كتاباً ألفه مرتد عن الإسلام من أصل هندي، باحت عن الشهرة، درس في مدرسة تبشيرية قبل مجيئه إلى بريطانيا، التي أكمل تعليمه فيها، واستوطنها. والكتاب هجوم مقذع على الإسلام، وشريعته، ونبيه -صلى الله عليه وسلم- ، وصحابته الكرام ، وقذف مر لأمهات المؤمنين بأسلوب سوقي وضيع، بل هو في مجمله سخيرية شديدة بكل ما تعارف عليه البشر من معان سامية، وشخصيات قدوة.

وليست هذه هي المرة الأولى التي يتهم فيها هذا الكاتب المأفون على الإسلام ، بل سبقت له مناسبات قبلها ، ولعل الغربيين فطنوا إلى أهمية أن يهاجم الإسلام ويشهر به شخص كان في الأصل مسلماً ؛ فاحتضنوه ، وشجعوه عن طريق أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة ودور نشر ، وعن طريق منحه جوائز لترويج كتبه ، وتسابقت كثير من الصحف تفسح له صفحاتها ، وتنقل فقرات من كتابه ، وتقدم عرضاً له ، وهذا عمل مألوف في كل عمل له رأي سلبي حول الإسلام ، أو ما يتعلق به.

وقد تنبه بعض المسلمين في بريطانيا لما في هذا الكتاب من أكاذيب حول نبي الإسلام ، ومن قصد سيء لهذا الكاتب ولناشر كتابه من أجل النيل من الإسلام ، وتجديد تصويره بأبشع الصور عن طريق أرخص السباب والشتائم المقذعة التي لا يقدم عليها إلا شخص يستهين بكل مبادئ البحث العلمي والموضوعية ، فاعتبروا أن هذا العمل يستحق الشجب ، واستعملوا أغلب الطرق القانونية المعروفة في الدول "الديموقراطية" للاحتجاج على نشر هذا التشويه المتعمد لكل ما يعتز به المسلمون.

وقد كان الأمر يسير سيراً طبيعياً ، ولا يثير أية ردود فعل ، إلى أن قام المسلمون بمظاهرة في مدينة "برادفورد" في شمال إنكلترا، عبروا فيها عن شجبهم للكتاب بالقيام بعمل رمزي فأحرقوا نسخة من الكتاب ، وعلى أثر ذلك ثار بركان الغضب المكتوم عند غير المسلمين، فشجبوا تصرف المسلمين هذا ، وليس هذا فحسب ؛ بل بدأت الصحافة بطرفيها : (الرصين والوضيع) حملة لا مثيل لها في

الهجوم على الإسلام ، والسخرية من المسلمين، ولم يبق في جعبتها نعت من نعوت التخلف والتعصب إلا وألصقته بالمسلمين وفكرهم ، ودولهم ، وتاريخهم ، وعاداتهم ، وكل شيء يتعلق بهم.

واعتبرت الصحافة ما قام به المسلمون للفت النظر إلى مشاعرهم ومدى إحساسهم بالألم اعتداءً على حرية الفكر ، وعداءً للديموقراطية وحقوق الإنسان ، وتهديداً للمجتمعات التي يعيشون فيها ، بل

وسخرت أقلاماً كثيرة ، لتحصر الاعتراض على ما جاء في الكتاب في مجموعة من المسلمين محبة للفوضى متعطشة للتخريب ، منغلقة الفكر ، ولكي تكسو دعواها هذه برداء يشبه الحقيقة ؛ كانت تلجأ إلى بعض الشخصيات "المارقة" ذات الأصول الإسلامية ، ممن لا يختلف عن "رشدي" إلا بارتدائهم ثوب البحث العلمي والأكاديمية ، فتستكتبهم ، أو تجرى معهم المقابلات التي يسفهاون فيها آراء

المسلمين ، ويسخرون من طريقة تناولهم للأمور... وهكذا. وفي الوقت الذي كانت فيه الصحافة تصول وتجول منفردة بعرض وجهة نظرها ؛ كانت وجهات نظر المسلمين تُتجاهل ، ويُسخر منها بتحمل شديد ، وبعد عن الموضوعية والحياد.

وبعد أخذ ورد ومحاولات كثيرة قام بها المسلمون للتعبير عن غضبهم، وتجاهل الصحافة؛ وتجاهل المسؤولين؛ بل وتحدي من الكاتب والناشر؛ دخل على الخط عنصر آخر في المواجهة ، فبينما كانت الدول بعيدة تقريباً عن مجرى الصراع ؛ إذا بنا فجأة نجد أن هناك من تقدم ليخطف الراية ، ويقود المواجهة!

ونحن نرى أن هذا الاختطاف للراية ليس من البطولة في شيء ذلك لأنه لا تكافؤ بين الخاطف والمخطوف منه، فالخاطف دولة، والمخطوف منه منظمات وأصوات لا تتبناها دول ، هذا من حيث الشكل الخارجي ، أما إذا لجأنا الى التفسير الباطني للأحداث (وأظن أنه لا تثريب علينا في ذلك ، إذا أخذنا بمبدأ المعاملة بالمثل) فإننا يمكن أن نلمح أشياء كثيرة لا يجهلها إلا المصاب بعمى الألوان ، فتحويل الحملة لتأخذ هذا النطاق العالمي يخفي وراءه مقاصد كثيرة ، ويهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية ، فبعد أنظاراً عن مشاكل ، ويصبوا إلى استعادة ثقة أصبحت مهزوزة ، وليس هدفنا هنا الاسترسال في رسم الصورة لما وراء الأكمة.

المهم أن الغرب حول المعركة في الاتجاه الذي يريده ، وقادها بمقدرة فائقة بأجهزة إعلامه المتنوعة ، ولم يبقها محصورة في نطاق الموضوع المتنازع عليه ؛ بل اتخذ من هذا الموضوع وسيلة يخرج بها كل الكراهية والأحكام المسبقة التي يكنها للإسلام والمسلمين جميعاً دون تفریق ، وهو إن أشار إليهم أحياناً بإشارة يُشتمُّ منها تعاطف ما ، فهو لا يعدو تعاطفه مع جنس من المخلوقات يخشى عليها من الانقراض ، فيؤدي انقراضها إلى نقص في امتيازات الرجل الغربي "المتحضر" ، ماذا نقول؟!... بل إن تجاوب هذا الرجل الغربي "المتحضر" ، القاسي القلب، المملوء جلده بالغرور والأثرة والغطرسة مع آلام الحيوانات أضعافاً أضعاف تجاوبه مع آلام البشر إذا كانوا مسلمين لو بالوراثة ، دع عنك ما إذا كانوا مسلمين بالممارسة.

هل هناك دروس يمكن استخلاصها من هذا "المهرجان" التشهيري بالإسلام وحضارته ، وبالمسلمين ودينهم؟ ما أجدر المسلمين أن يوظفوا مثل هذه التجارب من أجل أن تكون لهم مواقف مبدئية لا تتأثر بالعواطف ، ولا تقوم على ردود الأفعال.

أول فائدة يمكن استخلاصها هي أن هذه الديمقراطية التي يتغنى بها الكثير هنا وهناك لا تقوم على أساس صحيح ، حتى لو حاول أنصارها أن يقنعونا بعكس ذلك ، بل حتى الأساس المفترض للمساواة بين البشر غير موجود فيها ، والصحيح أنها فلسفة مفصلة لنوع معين من البشر وهو النوع الذي يعتقد أنه أرقى من غيره عرقاً وأصلاً وفكراً وحضارةً ، ديموقراطية متناقضة مبنية على الكذب والادعاء والبعد عن الإنصاف، فهي في الوقت الذي تتهم المسلمين بأنهم يريدون أن يفرضوا أعرافهم وأفكارهم على غيرهم ؛ تقوم هي بالفعل والقول في فرض أعراف الإنسان الغربي وتقليده وإفرازات حضارته في جميع أنحاء الأرض، حتى إذا أحد تملل أو قال: لا؛ سلطت عليه ألتها الإعلامية وضغوطها السياسية ، و "رمته بدائها وانسلت".

والفائدة الثانية أن الأفعال المنبعثة عن الهيجان وغليان الدم في مواجهة مثل هذه الأحداث قد تؤدي إلى عكس المقصود ، فدماء المسلمين أغلى من أن تراق من أجل أهداف وهمية، والقتلى والجرحى الذين سقطوا في (معركة الأشباح) هذه ؛ أولى لهم أن كانوا سقطوا في مواجهة أعداء

محددین أمامهم أو على أرضهم ؛ لا أن يسقطوا بعيداً بالآلاف الأميال عن مخبأ مارق خسيس تحتضنه الديمقراطية الغربية الوثنية.

رب قائل يقول : أين الغضب لحرمت الله التي انتهكت؟ ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم- يغضب لحرمت الله حتى لا يقوم لغضبه شيء؟ والجواب : نعم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- يغضب غضباً منتجاً ، لا غضباً عقيماً. وحق لنا أن نغضب ، وحق لنا أن نمتلئ غيظاً ، ولكنه الغضب الذي يتجه إلى الهدف ؛ لا الغضب الذي يكون صرخة في واد ، الغضب الذي يبتعد عن الاستعراض والتهويش ، فيكون نفعه أكثر من ضرره.

الفائدة الثالثة: أن يوفر المسلمون جهودهم لما ينفع ويؤدي إلى صلاح حالهم ، وأن لا يندعوا بأساليب الديمقراطية الغربية وضمانها لحرية القول والتعبير والاحتجاج ، فهذه الحرية سلاح ذو حدين ، أضعفهما الحد الذي يستعمله المسلمون الذين يعيشون في ظل هذه الديمقراطية، وأشدهما نكايه الذي تستعمله هذه الديمقراطية وعبأها ضد من يقف في وجه اعتدائهم ووقاحتهم.

الفائدة الرابعة: أن حقوق المواطنة سراب خادع مادام الإنسان حريصاً على أن يبدو مسلماً قولاً وسلوكاً ، والجمع بين هذه الحقوق ؛ وبين أن يكون المسلم مسلماً ؛ كالجمع بين الماء والنار ، وتستوي في هذه النتيجة كل الديمقراطيات : شرقية وغربية ، كما تستوي في النظر إلى المسلم نظرة الاشتباه والترقب والحذر كل العلمانيات : المسيحية والممسوخة.

وأخيراً فإن من أساليب أعداء الإسلام استغلال بعض الظواهر التي تثير المسلمين ، فينفخون فيها ، ويصطنعون منها معارك ، فيجهزون الساحة ، ويحشدون النظارة ، ويغرق الفريقان غير المتكافئين في حمى التشجيع ، ولا يعودان يميزان أماماً من وراء ؛ ولا يميناً من يسار ؛ ولا فوقاً من تحت ، وهي معارك حتى لو انتصر فيها المسلمون ، فانتصارهم ليس إلا (فقعة في قاع!) (١) ، وقد يكتشفون أو لا يكتشفون أن المستفيد الحقيقي من هذه المعارك ليس المنتصر ، بل الذي أقامها وحشد لها ، وهم في الحالة الراهنة الغربيون ومن يشاركهم العداء للإسلام وأهله في كل مكان ، وما استفادوا هو أنهم أظهروا المسلمين بالصورة التي يريدون ، وروجوا ما شاؤوا من الأفكار ، وسوّقوا انتاجهم الرخيص بثمن غالٍ ، واستقرغوا طاقات كثيرة للمسلمين في محاربة طواحين الهواء.

ألا من وقفة أمام تعريف الحكمة وتحديدها؟! الحكمة التي قال الله تعالى فيها : ((يُوتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)) [البقرة: ٢٦٩].

١- هذا مثل ، تقول العرب : فلان أذل من فقعة في قاع . والفقع : الرديء من الكمأة .

الدرس الخامس :

كان من لا يعرف حسن البنا تشده إليه طريقته المهذبة الرقيقة في التعامل مع الناس... كتب عنه عدد كبير من المفكرين العلمانيين أو العصاة ، فشهدوا بحسن أخلاقه وأدبه وتواضعه رغم اختلافهم معه في الأفكار والتصورات ، ولكنهم أنصفوا الرجل. يقول إحسان عبد القدوس في روز اليوسف ١٢ سبتمبر / ١٩٤٥ ولا يخفى على أحد طبيعة هذه المجلة واتجاه أصحابها : "لو زرت حسن البنا لاستقبلك بابتسامة واسعة ، وآية من آيات القرآن الكريم ، يعقبها بيتان من الشعر ، يختمها بضحكة كلها بشر وحياة. والرجل ليس فيه شيء غير عادي، ولو قابلته في الطريق لما استرعى نظرك ، اللهم إلا بنحافة جسمه ولحيته السوداء التي تتلاءم كثيراً مع زيه الإفرنجي وطربوشه الأحمر الغامق.."، ثم تحدث عن لبايقته وقدرته على الإقناع ، ورزانه أسلوبه. ويقول الأديب الكبير أحمد حسن الزيات :

"وجدت فيه ما لم أجد في قبيله ، أو أهل جيله : من إيمان بالله راسخ رسوخ الحق ، لا يزعزعه غرور العلم ، ولا شرود الفكر ، وفقه في الدين صاف صفاء المزن ، لا يكدره ضلال العقل ، ولا فساد النقل ، وقوة في البيان مشرقة إشراق الوحي لا تحبسها عقدة اللسان ، ولا ظلمة الحس، إلى حديث يتصل بالقلوب، ومحاضرة تمتزج بالأرواح، وجاذبية تدعوك إلى أن تحبه ، وشخصية تحملك على أن تدعن !!".

ثم قال الزيات : «والفطرة التي فطر عليها حسن البنا والحقبة التي ظهر فيها حسن البنا تشهدان بأنه المصلح الذي اصطنعه الله لهذا الفساد الذي صنعه الناس» عن كتاب [حسن البنا ، الداعية الإمام والمجدد الشهيد، أنور الجندي، ص ٢٦٨].

يقول الشيخ محمد الغزالي في قمة خلافه مع الإخوان وبعد أن تخلى عنهم : «شهدت رجلاً كان يهاجم الأستاذ البنا -رحمه الله- في الهيئة التأسيسية مهاجمة عنيفة، ويخاطبه بما لا يليق من الألفاظ. فلما ثار عليه الإخوان غضب الإمام الشهيد وثار في وجه الغاضبين ، حتى لقد أخرج بعضهم ، ثم أقبل مبتسماً على هذا المهاجم المتجني ، وقال له : قل ما شئت وانقدي كما ترى، فلن تقاطع بعد ذلك، ولعلي أجد في قولك ما أصلح به خطأ أو أقوم به معوجاً ، [من معالم الحق ٢٥٧ ، دار الكتب الحديثة].

أشار الأستاذ البنا في مذكراته إلى سبب من الأسباب التي دعت جماعة شباب محمد إلى التخلي عن الإخوان فقال :

«وكان هذا الشعور نواة لتفسيرات لاحقة [يقصد تملق أحد الإخوان للنواب وقادة الأحزاب في حفل عام] لتصرفات كثيرة مشابهة ، وما زال يتضخم حتى صار أساس فتنة ذهبت بمجموعة من خيار الإخوان ، وحالت بينهم وبين العمل في هذا الميدان» [المذكرات ٢٥٢].

والشاهد هنا أنه رغم وقوع خلاف بينه وبينهم، ورغم انفصالهم عن الإخوان وقيامهم بتأسيس جماعة جديدة أسموها "شباب محمد" ، فلقد وصفهم البنا بأنهم من خيار الإخوان، وحاشاه أن ينشر عنهم الأراجيف ، ويتهمهم بما هم منه براء ، ويؤلب الأجواء ضدهم ، ويسخر عشرات الآلاف من إخوانه ليقوموا بتشويه سمعتهم أمام الناس... ليس هذا من خلق البنا ، وهو الذي يقرأ في كتاب الله قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [المائدة:٨].

فهم عنده من خيار الإخوان وإن وقعت الخصومة بينه وبينهم... ما أشد حاجة الدعاة والجماعات اليوم إلى مثل هذه الأخلاق الرائعة ، وما أشد حاجتهم إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم- الذي وصفته عائشة -رضي الله عنها- بقولها : «كان خلقه القرآن».

الدرس السادس :

نجح البنا في تحويل الأفكار والأمانى إلى واقع ملموس. فإذا تحدث عن الزكاة مثلاً لم يقف عند حد الوعظ، والتذكير، وترغيب الناس وترهيبهم بل تراه يأمر بتنظيم لجنة مهمتها جمع الزكاة من الملتزمين في الجماعة وغيرهم من عامة المسلمين ، ثم يقومون بتوزيعها حسب الطرق الشرعية المعروفة. وكذلك يفعل في مختلف جوانب البر والخدمات الاجتماعية ، فيقدم المساعدات للعاطلين عن العمل ، والمرضى ، وغيرهم من المنكوبين والمحترجين ، وكان لقسم البر والخدمات شعب في مختلف أنحاء مصر ، وعندما كان يدرّب إخوانه على عمل خيري ، كان يقول لهم : هذا أفضل من عشرات الدروس في الوعظ.

وخطط -رحمه الله- لتكون الجماعة غير محتاجة إلى عون أية جهة حكومية ، أو غير حكومية ، فأسس الشركات الاقتصادية وكان من أشهرها :

شركة المعاملات الإسلامية، والشركة العربية للمناجم والمحاجر، وشركة المطبعة الإسلامية والجريدة اليومية ، وشركة التجارة والأشغال الهندسية بالإسكندرية ، وشركة الإعلانات العربية، فضلاً عن تأسيس المستشفيات المجانية [انظر الإخوان المسلمون والمجتمع المصري ص : ١٣١]. ومما لا شك فيه أن هذه الشركات أزهت فاروق ، والأحزاب ، والإنكليز ، وأشعرتهم أن هذه الجماعة ليست مجموعة من [ال دراويش] ، ، وإنما هي واقع ضخم لم تعرفه منذ عدة قرون.

الدرس السابع :

كان الرجل جاداً عندما نادى بتحرير مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي من نير الاستعمار الدخيل ، والمجدد لا يعرف الهزل في قضايا دينه وأمته... لقد أخذ البنا يخطط من أجل طرد الإنجليز من مصر ، ومن أجل طرد اليهود من فلسطين ، وشكل -رحمه الله- تنظيمًا عسكرياً ، وأخذ يبتاع الأسلحة ، ومصر كانت مخزن أسلحة ، لاسيما أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية. قال -رحمه الله- في خطاب جامع ألقاه في المؤتمر الدوري الخامس :

"في الوقت الذي يكون فيه منكم معشر الإخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسماً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني أن أخوض بكم لجاج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فإنني فاعل إن شاء الله..."

انظر إلى قوله : [فإنني فاعل إن شاء الله] ، وبدأ التنفيذ العملي عندما أمر إخوانه في مصر وسورية والأردن دخول حرب فلسطين، وأبليت هذه القوات بلاء حسناً ، وكان اليهود يهابون المعارك التي يواجهون بها كتائب الإخوان كما شهد رئيس أركان الجيش المصري في المحكمة وهو ليس منهم وليس من مؤيديهم ، إنه رجل دولة وقد صحا ضميره فأدلى بهذه الشهادة... وسقط على أرض فلسطين المباركة عدد غير قليل من هؤلاء الشهداء الأبرار ، واستماتوا في الدفاع عن الأقصى في الوقت الذي كانت فيه الأحزاب الشيوعية العربية تعلن تأييدها لما أسمته حق إقامة دولة لليهود في فلسطين وكان دعاة العلمانية من الأحزاب التي لبست لبوس القومية العربية لا

تختلف مواقفهم عن مواقف الشيوعيين كثيراً، ومن يستقرئ التاريخ يجد وثائق لا تحصى تدمغ أصدقاء "النبى" و "لورنس" و "غلوب".. فهل تصحو ضمائر زعماء قادة منظمة التحرير فيعترفون بحقائق التاريخ الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار؟! - ألا يعرف هؤلاء أن جيش عمر بن الخطاب هو الذي فتح فلسطين وطهر الأقصى من دنس الرومان الصليبيين!؟.

- ألا يعرفون أن جيش صلاح الدين الأيوبي هو الذي فتح فلسطين وجعل منها مقبرة للغزاة الصليبيين!؟.

- هل نسي أو تناسى هؤلاء أن جند عز الدين القسام، والحاج أمين وعبد القادر الحسيني ، وجند الإخوان المسلمين من مصر وسورية والأردن وغيرها من البلدان العربية ، وجند الإسلام من تركيا ويوغسلافيا والهند وغيرها من البلدان التي يكثر فيها المسلمون ... هؤلاء جميعاً هم الذين استماتوا في الدفاع عن فلسطين عام ١٩٣٦ و عام ١٩٤٨م.

- أخبرونا من الذين يواجهون اليهود في فلسطين المحتلة منذ أكثر من عام؟!.. إن الذين يريدون فرض جورج وكابوتشي والشيوعيين علينا لا يريدون خيراً لفلسطين ، والتاريخ لا يرحم !!.

كانت سجون مصر تنتظر الإخوان المسلمين ، بعد عودتهم من حرب فلسطين ، ولكن الذين لم يدخلوا السجن وهم قلة أخذوا يستعدون لمعركة أخرى... وانتظروا أول فرصة سانحة ، أي بعد خروج مجموعات من الإخوان من السجن، فبدأوا معركة قنال السويس ضد الإنكليز ، وشارك في هذه المعارك بعض الضباط من الطيبين وغيرهم ، فشعر المستعمر بأنه من الصعب جداً استمرار احتلاله لمصر لأنهم أصبحوا هدفاً لضربات الإخوان القوية في كل مكان من مصر ، وكان من أبرز أبطالهم الشيخ محمد الفرغلي ، والأستاذ يوسف طلعت ، اللذين أعدمهما نظام جمال عبد الناصر لأنه يعلم أنهما سيقاومان كل انحراف وكل فساد...

وجملة القول : هذا جانب تجديدي من تجديد حسن البناء، وهذه صفحات مشرقة من تاريخ هذا الرجل في الجهاد.

الدرس الثامن :

كان البناء دائم التجديد، فلقد بدأ بداية متواضعة، ثم أخذ يطور جماعته، ويطور مخططاته... وكما قلنا فيما مضى كان من هذا التجديد المستمر في عمله : إنشاء الصحف ، والشركات، ومراكز البر والخدمات، ونظام الأسر، والنظام الخاص ... وكان -رحمه الله- يعلم أنه قد انضم إلى الجماعة في مختلف فترات عناصر غير متجردة، وكانت تريد من وراء ذلك مكاسب ومغانم، وأن من هؤلاء من توصل إلى مراكز قيادية في الجماعة... انظر إليه وهو يقول :

«في هذا اليوم تحدث إلي ... و... بخصوص نظام مجلس الإدارة، إن هؤلاء الناس لم يفهموا بعد دعوة الإخوان المسلمين، وقليلون هم أولئك الذين يستطيعون النهوض بأعباء إدارتها، وتنفيذ منهجها الواسع، إنني أتمنى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويديرون فأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلاً وأطمئن إلى مقدرتهم ، ولكن أين هم؟ إن الكثيرين لا يفهمون من مجلس الإدارة إلا كلمة العضوية، فهم يتنافسون على حيازتها، وتقع بها بينهم العداوة والبغضاء.

سيتبع التغيير المنتظر ضجات هي كالسراب يلوح ثم يزول بمجرد الوصول إليه. فاللهم إن كنت تعلم حسن القصد وخلص النية فوفق ، وإن كان غير ذلك فاسلك بنا سبيل عبادك المخلصين ، أمين ، [المذكرات ١٣٣].

وكتب قبل صفحتين يقول :

«على أن ملخص خطراتي أن فرعي جمعية الإخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا تنفع كثيراً، لأنها أنشئت بغير أسلوب، ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسي، وبجهود الإخوان الحقيقيين الذين يرون لي معهم شركة في التهذيب والتعليم ، وهم قليل. ونفس فرع الإسماعيلية ستحدث فيه تعديلات كثيرة ، ولكنه سيسير سيراً نافعاً إن شاء الله ... إنه لله... قائد موهوب ولكنه منصرف بهذه القيادة وهذه المواهب إلى السفاسف مسرف في وقته لا يقدر له قيمة، قلبه مملوء بأوهام لا حقيقة لها، ومنصرف إلى ناحية لا تثمر إلا العناء، فالاعتماد عليه ضرب من المخاطرة العقيمة. والأخ الشيخ.. له أساليبه الخاصة به. وهو ينظر إلي كأخ زميل فلا يصغي لآرائي إلا قليلاً، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكرة ضرباً من التعسر؛ فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك» [المذكرات ١٣١].

وفي هذه الأسطر القليلة نقرأ عبارات تحتاج إلى دراسة واسعة لأهميتها ، والبحث لا يتسع لذلك ولكن نشير إليها :

- يتمنى أن يكون الى جانبه من عشرات الآلاف رجال قلائل يفهمون دعوته. انظر إليه وهو يتساءل : ولكن أين هم؟!.

- يعرب عن حزنه وألمه من هؤلاء الذين يتنافسون على عضوية مجلس الإدارة، ومن أجلها يتخاصمون.

- يؤكد أنه سوف يجري تغييراً وسوف ينشأ عن هذا التغيير ضجة.

- الاعتماد على غير المخلصين ضرب من المخاطرة العقيمة.

فمن هؤلاء الذين يقصدهم؟!... هل هم الذين تخلوا عنه وانضموا إلى حزب الوفد؟!.

أم هم الذين تأمروا فيما بعد مع عبد الناصر وأمثاله ضد إخوانهم؟!.

أم هم صنف ثالث استمروا في الجماعة وفقدوا رجلاً كاللبناء يفهمهم على حقيقتهم؟!.

وفيما كتبه البناء -رحمه الله- موقف مهم من الصوفية وطرقهم وانحرافاتهم. قال -رحمه الله- :

«حضر إلى الإسماعيلية... من القصاصين وهو يدعو إلى الطريقة وله أفكار خاصة تنافي آمالي الإسلامية. وأنا إنما وقفت نفسي لدعوة أرى أنها خير السبل للإصلاح الإسلامي ، وأمثال هؤلاء يريدون تحويلها وتشكيلها بشكل دعواتهم وذلك مالا أريد..

لقد أن الأوان الذي اعتزل به عن كل هذه الدعاوى المشتبهة. وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامي الذي يتلخص في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام ، وإرجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف» [المذكرات ١٣٢].

فعلى الذين يتحدثون عن صوفية حسن البناء في صغره أن يتدبروا قوله هذا، ويضعوا خطوطاً تحت قوله عن الصوفية : [تنافي آمالي الإسلامية]. وقوله : [لقد أن الأوان الذي اعتزل به عن كل هذه الدعاوى المشتبهة].

وتأكيداً بأن دعوته تقوم على الكتاب والسنة وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام... وهكذا كان البناء -رحمه الله- دائم التجديد يكره الجمود والتقليد ، كما كان يسير بدعوته من مرحلة إلى مرحلة

أخرى ، ويخطط لهذه المراحل ، ويعرف الموضع الذي يضع فيه قدمه... وكان يسمع النقد ويصغي لكل ناصح ، ويسارع إلى الاعتراف بخطئه ، ويمد يده لكل داعية للإسلام داخل مصر وخارجها. ولقد أفلقت هذه الظاهرة أعداء الإسلام من المستعمرين وأعوان فاروق ، وعلّموا أن مركز القوة في الجماعة هو مؤسسها ومرشدها ، فدبروا محاولة اغتياله ، ومن الغرائب والغرائب كثيرة أن يكون حماة الأمن هم أنفسهم قطاع طرق ، وجناة وقتلة... وفرح أعداء الإسلام داخل مصر وخارجها عندما علّموا بنبأ قتله.

رحم الله البنا رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده ، واغفر لنا وله.

من مشكاة النبوة حديث الفطرة

محمد سليمان

نص الحديث : في الصحيحين ، واللفظ للبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- : «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا : ((فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)) [الروم: ٣٠] ، قالوا يا رسول الله : أفرايت من يموت صغيراً؟ قال : «الله أعلم بما كانوا عاملين».

ما هي الفطرة :

الفطرة هنا هي الإسلام ، فكل مولود يولد مسلماً كما جاء في الصحيح من رواية الأعمش (على الملة) (١) ، وكما ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه أنه قال : «خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل سلطاناً... ، وفي رواية حنفاء مسلمين ، والحنيف في لغة العرب المستقيم المخلص.

وكذلك حديث "خمس على الفطرة.. " أي فطرة الإسلام ، وقوله سبحانه : ((الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)) فهذا يعم جميع الناس كما أن إضافة الفطرة إليه سبحانه هي إضافة تشريف ومدح كقوله : ناقة الله ، أو قول الرسول صلى الله عليه وسلم- عن خالد ابن الوليد (سيف الله) والذي يمدح هو الإسلام.

ومن معاني الفطرة ذلك الإقرار بالرب نتيجة الميثاق الذي أخذه من ذرية آدم. قال تعالى : ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ)) [الأعراف: ١٧٢].

فهذا يعني أن الخلق مجبولون على المعرفة بالله، فهو شيء يجدونه في أنفسهم لا يستطيعون له دفعا ، وإذا أصابتهم ضراء ، دعوا الله ورفعوا إليه أكفهم. فمن أين جاءهم هذا التوجه إلى الخالق وأنه هو الذي يستطيع رفع الضر ، إنها الفطرة المركوزة فيهم ، ولولا أن في النفس قابلية لمعرفة الله ومحبته والذل له لما استطاع التعليم والتذكير أن يؤثر فيها ، فقوة المحبة لا تأتي من الخارج ، وإنما هي شيء في الداخل.

ولما دعا الرسل أقوامهم إلى عبادة الله دعوهم إلى من يعرفونه ولم ينكر دعوتهم أحد ويقول : وما رب العالمين؟ وأما إنكار فرعون فهو إنكار العارف كما قال تعالى : ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)) [النمل: ٤٤] وكما قال له موسى عليه السلام : ((لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ)) [الإسراء: ١٠٢].

ويرشدنا الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى أن تغيير هذه الفطرة يقع بتأثير الوالدين أو تأثير البيئة. ولذلك شبه المولود بالبهيمة الجمعاء التي تولد سليمة مجتمعة الخلق لا تغيير فيها ولا تشويه ، ولكن الناس يغيرون خلقها بعدئذ فيشقون أذانها أو غير ذلك ، فالفطرة لو تركت دون تأثير خارجي ، سواء من الوالدين أو غيرهم ، وأزيحت عنها العوائق من الشبهات والشهوات فهي مقتضية بذاتها لدين الإسلام.

قال ابن عبد البر : وقد سئل ابن شهاب عن رجل عليه رقبة مؤمنة أجزئ الصبي عنه أن يعتقه وهو رضيع؟ قال : نعم لأنه ولد على الفطرة. وقول الإمام أحمد في سبي أهل الحرب أنهم مسلمون إذا كانوا صغاراً وسبوا ولم يكن معهم الأبوين.

وليس معنى أنه يولد مسلماً أنه يعلم الصلاة والصيام وأمور الإسلام ، بل هذه يتعلمها بعدئذ ، قال تعالى : ((وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)) [النحل: ٧٨] ، ولكن معناه أنه لو ترك عن التأثير لكان مسلماً واتجه إلى الله، ثم يأتي دور التعليم والإرشاد وإقامة الحجة ، وإقامة العذر ببعثة الرسل التي تكمل الفطرة ، فلا بد من نور النبوة مع الفطرة السليمة. كما أن الفطر تختلف فبعضها يحتاج إلى تعليم أكثر وتحضيض وتذكير ، ولكن القابلية موجودة.

الكفر طارئ :

إذا كانت الفطرة تقتضي الإسلام ، فهذا يعني طروء الكفر وأنه ليس هو الأصل في النفس البشرية ، وقوله تعالى : ((لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)) أي لا تبديل لدين الله. وهو معنى ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...)) الآية.

أخرج ابن كثير في تفسير هذه الآية قوله قتادة : ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)) ، قال : كانوا على الهدى جميعاً ثم اختلفوا (٢).

وأما ما جاء في سورة الكهف في قصة موسى -عليه السلام- والرجل الصالح الذي قتل الغلام، فلا يعني هذا أن كفر هذا الغلام كان موجوداً حين الولادة، لذلك جاء في الحديث الصحيح : «أن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» فقوله : طبع أي طبع في الكتاب ، أي قُدِّر وقضي فهو مولود على الفطرة السليمة ولكن يتغير بعدئذ فيكفر ، كما أن البهيمة التي ولدت جمعاء وقد سبق في علمه سبحانه أنها تجدع كتب أنها مجدوعة ، بجذع يحدث لها بعد الولادة.

وقد قتل الصحابة في سرية من السرايا أولاد المشركين فأنكر عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذلك ، فقالوا : أليسوا أولاد المشركين ، فقال : أليس خياركم أولاد المشركين؟ ثم قام فيهم خطيباً فقال : «ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه» ، فهذا يبين أن الكفر طراً بعد ذلك.

كما أن قوله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث : فأبواه يهودانه... فلا يعني أن نفس الأبوين خلقاً يهوده وتنصره ، بل هو تهود وتنصر باختياريه ولكن الأبوين كانا سبباً في ذلك بالتعلم والتلقين والتربية ، وهو بقدر الله أيضاً.

شبهات وردها :

١- قد يقال أن الفطرة هنا معناها السلامة وذلك بأن يكون قلبه صفحة بيضاء قابلاً للإيمان أو قابلاً للكفر ، أو كاللوح الذي يقبل أي كتابة. وهذا القول قول فاسد لأن الذي يكون قابلاً للمدح والذم لا يستحق مدحاً كقوله تعالى : ((فَطَرَتَ اللهُ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)) وكان ينبغي أن يقال : فأبواه يهودانه أو ينصرانه... أو يسلمانه ، وعلى هذا الفرض فلا يكون في القلب سلامة ولا عطب، ولا استقامة ولا زيع، كالورق قبل أن يكتب فيه القرآن ، أو يكتب فيه كفر بالله ، أو كالتراب قبل أن يبني مسجداً أو كنيسة فهذا لا يستحق مدحاً ولا ذمماً.

وأهل البدع يقولون : لم يولد أحد على الإسلام ، ولا جعل الله أحداً مسلماً ولا كافراً ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطاهما قدرة تصلح للإيمان والكفر. فهذا أحدث لنفسه الكفر وهذا أحدث لنفسه الإسلام ، وأن الله لم يختص المؤمن بتوفيق الهداية ، وهذا مخالف للحديث ومخالف لعقيدة أهل السنة.

٢- وقد يقال : إن الفطرة السليمة لو تركت لاختارت المعرفة بدل الإنكار ، والإيمان على الكفر ، كما أن في الجسم السليم قوة يحب بها الأغذية النافعة ، فهذا إن كان يعني أنه لا بد من تعلم بواسطة الأدلة ، وأنه إن لم توجد هذه الأدلة فإن الفطرة لا تستطيع الإيمان. فالرد عليه أن الفطرة مُدحت لذاتها وأنها إذا سلمت من الشبهات والشهوات فهي تقر بالخلق ، وإن كان مقصوده أن في الفطرة قوة تغلب الدين الحق على غيره ولكنها بحاجة إلى التنبيه والتذكير فهذا صحيح مع العلم أن المعرفة وحدها لا تكفي ، بل لا بد من عبادة الله بالمحبة له والذل له.

٣- عندما نقول أن أولاد الكفار على الفطرة فهذا لا ينافي أن يكونوا تبعاً لأبائهم في أحكام الدنيا ، مثل حضانة آبائهم لهم وتمكين آبائهم من تعليمهم وتأديبهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم- إنما أراد الإخبار بالحقيقة التي خلقوا عليها ولم يرد به الإخبار بأحكام الدنيا ، فقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن في الباطن ويكتم إيمانه والمسلمون لا يعلمون حاله ، فهو عندهم كافر في ظاهر الأمر فلو فتحوا هذه البلاد جهاداً في سبيل الله فربما قتلوه على أساس أنه مشرك ، والطفل يولد على الفطرة ، ولكنه لو أسر مع والديه الكافرين فسيبقى معهم.

نزعة التدين وأصلاتها :

ما إن أطل القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديان حتى امتلأت أوروبا غروراً بالعلم المادي الذي اخترعته وانتفش الكفر وعبد هذا الصنم الجديد من دون الله ، وقالوا ان العلم ينافي التدين، واستثمر الماكرون هذه المقولة لإبعاد الدين عن الحياة، ثم ظهرت بعدئذ الدراسات الاجتماعية وتوسعت وتعمقت في موضوع طبائع الشعوب وعاداتها ، وظهر علم مقارنة الأديان وتبين أن نزعة التدين لا يخلو منها شعب في القديم والحديث ، وعند أشد القبائل وحشية وتأخراً ، وعند أشد الأمم تمدناً ، ورقياً مادياً.

يقول معجم (لاروس للقرن العشرين) : "إن الاهتمام بالمعنى الإلهي هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية ، والغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة ، وعند عدد قليل جداً من الأفراد ، (٣).

ويقول شاشاوان: "مهما يكن تقدمنا العجيب في العصر الحاضر، فإن عقلنا في أوقات السكون والهدوء (عظماً كنا أو متواضعين ، خياراً كنا أو أشراراً) يعود عقلنا الى التأمل في هذه المسائل الأزلية : لم ، وكيف كان وجودنا ووجود هذا العالم؟" (٤).

ويقول الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- : «ما هذه إذاً تلك القوة التي لا تزيدها المقاومة إلا عنفاً واشتعالاً أليست هي قوة الفطرة التي تورق وتثمر كلما عاودها الربيع فبَلَّ ثراها وسقى أصولها؟! بلى! وإن هذا قد تكفي منه قطرة ، وربما يتبلور في نظرة ، فما هي إلا طرفة من تأمل الفكر أو لحظة من يقظة الوجدان ، أو أزمة من صدمات العزم فإذا أنت مع عالم الغيب الذي منه خرجت أو في عالم الغيب الذي إليه تصير» (٥).

وقد عبّر ديكارت في تأملاته عن هذه الفطرة : "إن مفتاح هذه العقيدة (وجود الله) موجود في نفسه ، (في نفس الإنسان) كلما شعر بالفرق بين الشك واليقين أو بين الجهل والعلم ، وكلما قرأ في لوحة نقصه عنوان (الكمال) الذي ليس له ، فالكمال هو أسبق في العقل من فكرة (النقص) فإن من لا يعرف الشيء لا يتفقد ولا يحس بحرمانه حين يفقده ، إذ كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن أكمل مني أجعله مقياساً ، أعرف به مواضع نقصي، فالرغبة في الكمال وحدها دليل أسبقية وجود هدفها في التصور العقلي وليست هذه الفكرة اختراعاً وفرضاً خيالياً بل هي ضرورة تفرض نفسها على عقلي ، فلا بد أن تكون ذات خارجية هي مادة الكمال المطلق ومصدره وهي المثل الأعلى" (٦).

دروس في الدعوة :

هذا الحديث النبوي أصل من أصول الدعوة الى الله ، فعندما نخطب الناس بأن معبودهم هو الله - سبحانه وتعالى- وليس أحداً غيره فإنما نخطب شيئاً مركزاً في النفس الإنسانية وإذا أزيح ما علق بها من شوائب الشبهات والشهوات رجعت إلى فطرة سليمة.

والذين يتعبون أنفسهم كثيراً في إثبات وجود الله وأنه هو الخالق لهذا الكون ، ويثبتون ذلك بالأدلة العلمية أو المنطقية، إلى هؤلاء نقول : هونوا على أنفسكم فليست المشكلة بيننا وبين الناس أنهم ملحدون لا يؤمنون بوجود الله بل المشكلة الحقيقية هي أنهم لا يريدون الخضوع بالعبادة لهذا الإله فهم متبعون لشهوتهم وعاداتهم أو لكبريائهم وتجبرهم في الأرض أو أن الشبهات التي سمعوها عن الإسلام تبعدهم عن الاستجابة ، والذين يظهرن الشك أصلاً والإلحاد بوجود الله هم فئة قليلة على مدار التاريخ والشيعوية المعاصرة والتي هي أزمة من أزمت الحضارة الغربية لم تستطع الاستمرار في معقلها لأنها تصادم الفطرة ، وهاهي تتنازل عن مبادئها سنة بعد سنة ولم يستطع إرهاب السنوات السابقة أن يقتلع جذور التدين عند الشعوب التي أخضعها الروس لحكمهم.

وحتى إذا أردنا إقناع هذا الشيوعي الملحد بوجود الله بأدلة علمية ومنطقية، فهل نضحي بالمنهج في سبيل هذه القضية وتتحول الكتابة والدروس والمحاضرات لإثبات وجود الله بينما كان الأصل هو إزالة ماران على قلوب الناس من زيغ وتذكيرهم بالله الذي يعرفونه وأنه هو الذي يستحق الطاعة والمحبة والعبادة ، وكل خضوع لغيره فإنما هو الدمار ولا نريد أن نعلمه شيئاً هو يملكه، ولكن يجب أن نعلمه الإيمان الذي يتحول إلى طاقة إيجابية.

والرسل دعت الأمم إلى عبادة الله الذي يعرفونه ولذلك قالوا لهم : ((أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)) فهذه بديهية لا أحد يشك فيها.

إن الحديث عن آيات الله في الآفاق والأنفس حديث مهم ، والقرآن دعا إلى التفكير في خلق الله وأمره ، مما يدعو إلى زيادة الإيمان واكتشاف سنن الله في خلقه وسنن الله في التغيير وقد يأتي بعض الناس إلى الإسلام عن هذا الطريق، ولكن هذا كله وسيلة إلى الغاية الأساسية ، وهي خضوع الناس لشرع الله وأن تكون عبادتهم خالصة له.

والأولى أن تتجه الدعوة إلى المسلمين الذين هم في بعد عن الدين الذي أنزله الله وفي جهل بحدود وشرائع الإسلام ، وذلك قبل أن تتجه إلى فئة قليلة من الملحدين المستهزئين الذين يشغلون المسلمين بجدل عقيم وغالبهم لا يقصدون الوصول إلى الحق ، والرسول صلى الله عليه وسلم- هو سيد الدعاة وهو الذي يجب أن نقتبس من نور نبوته.

الهوامش :

- ١- ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وهذا الجزء هو المصدر الأساسي لشرح هذا الحديث وكذلك كتاب الدين للشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- .
- ٢- تفسير ابن كثير ٢٥٠/١ .
- ٣- محمد عبد الله دراز : الدين /٨٤ .
- ٤- المصدر السابق : /٨٤ .
- ٥- محمد عبد الله دراز :الدين /٩٧ .
- ٦- المصدر السابق /١٥١ .

التعليم : الواقع والطموح (*)

جاسر عبد الله الجاسر

تمهيد :

عندما نقول بأن فلاناً متعلم فهذا يعني أنه يملك استعداداً أولياً لأن يكون مثقفاً وهو بالضرورة على درجة من الوعي مرتبط بمستواه التعليمي ، وبالتالي فهو إنسان إيجابي ومثمر لأنه قادر على توظيف المعطيات الأولية بشكل بناء ولخير الصالح العام.

كل هذه أشياء يفترض توافرها في الشخص المتعلم لأن التعليم يهدف للتغيير الإيجابي وبصورة أشمل فهو يهدف لتهيئة الإنسان فكراً أي أن يتعلم الإنسان كيف يفكر بشكل منهجي.

من ذلك نجد أن التعليم يتعامل مع عقل الإنسان باعتباره عدة عوامل مترابطة ، بحيث تكون الذاكرة مدخلاً أولياً لحفظ وتخزين لأساسيات الضرورية للتفكير ثم يهدأ بعد ذلك إكمال البناء الفكري عن طريق الملاحظة والربط والاستنتاج والمقارنة.

ولكن التعليم العربي ينطلق من اتجاه معاكس تماماً فهو يتعامل مع الذاكرة فقط باعتبارها إمكانية إيجابية وحيدة في ذهن الإنسان ، ولذلك كان الحفظ الكامل لأرتال من المعلومات المعلبة هو هدف التعليم العربي ، وكلما كان الطالب أكثر استعداداً للحفظ كان في نظر المشرفين أكثر ذكاءً والمعية ، من هنا ابتدأ الخطأ.

خطوة أولى :

يقول العرب "العلم في الصغير كالنقش في الحجر" وهذا المثل يوضح بأبرز صورة نمطية التفكير التعليمي لدينا ، فالعلم يقصد به الحفظ ، ومنذ ذلك الحين ، والمتعلمون سامحهم الله يحشون رؤوس صغارنا بكم هائل من المعلومات المتناثرة فيصبحون كالبيغاوات ، وما إن يسأل أحدهم عن معلومة ما حتى ينطلق سارداً إياها لا يغادر صغيرة أو كبيرة ، ويفرح الأهل بذلك أشد الفرح ، بينما الطفل المسكين لا يفهم شيئاً مما قال.

يجمع علماء النفس التربوي على أن ذكاء الطفل حتى الثامنة تقريباً هو ذكاء حركي وليس تجريدي ، بمعنى أن الطفل يعرف الأشياء من خلال احتكاكه المباشر بها ، ولذلك ركز التربويون على استخدام اللعب كمدخل تعليمي للأطفال في هذه السن ، بينها يصر التربويون العرب على أن يحبسوا الطفل في قاعة خاصة لمدة تزيد عن خمس ساعات ، وهو يجتر المعلومة تلو المعلومة ، ورأسه الصغير يكاد ينفجر ضيقاً وقرفاً وخوفاً ، فما أن يطلقوا سراحه حتى ينطلق لممارسة أنواع سطحية ساذجة من اللعب العابث الذي لا ينمي موهبة ولا يرسخ سلوكاً ولا يثمر إلا ضياعاً وجهاً لا يفوقه إلا جهل المدرسة.

خطوة ثانية :

يجمع التربويون على ضرورة أن يكون معلم الطفل متخصصاً في هذا المجال ، دارساً لنفسية الطفل ، مدركاً للفروقات الفردية ، والأهم من ذلك كله أن يكون مخلصاً في عمله متحمساً له ، مؤمناً بأنه يؤدي عملاً جليلاً ، وواجباً خطيراً. ولكن وزارات التربية العربية لا تؤمن بشيء من هذا ، وهي ترى بأن الطفل يستطيع تعليمه من يعرف مبادئ القراءة والكتابة ، ولذلك توكل عملية تعليمه لأقل مدرسيها كفاءة ومستوى وربما أقل مدرسيها اهتماماً بالطفل ، فيكون الطفل ضحية من ناحيتين. والخطورة تكمن في أن مرحلة التعليم الأولية تشكل التكوين الفكري الأساسي للطفل ، بحيث تصبح المراحل اللاحقة مجرد إبراز الجوانب الخفية في هذا التكوين. فإذا لم يكن المعلم مدركاً لهذا الجانب ، ولم تكن المناهج قادرة على ربط الطفل بعقيدته بشكل صحيح ومدروس فإن النتيجة النهائية ستكون الفشل لأننا أخطأنا في تحديد نقطة البداية وبالتالي فإننا كلما تقدمنا خطوة ، سنوغل في الخطأ أكثر وهكذا فإننا لن نصل أبداً.

خطوة ثالثة :

يعاني معظم الطلبة العرب من عدم التوافق الدراسي ، وهذا يعني بأنهم يشعرون بأن الدراسة عبء مرهق يفرحون سريعاً بالتخلص منه ، وهم يقضون نصف دراستهم في التحسر على إجازات انتهت ونصفها الآخر في انتظار إجازات قادمة ، وهذا يعني منطقياً أن استيعابهم محدود وتركيزهم شبه معدوم ، ولذلك تتبخر معلوماتهم بعد الامتحانات مباشرة ، فينسون كل ماله علاقة بالدراسة وهكذا ينتهي كل شيء ، وهذا يعني وجود خلل خطير في المناهج وفي طريقة التدريس إذ أنه من المفروض أن يحب الطالب المدرسة ، وأن يستمتع بالدراسة كما يستمتع بأية هواية أخرى يحبها ويقضي ساعات طويلة في ممارستها.

ومن نتائج عدم التوافق الدراسي ضعف المستوى العلمي حتى على مستوى خريجي الجامعات ، ومما يؤكد انعدام فاعلية التعليم لدينا هو اقتران هذا الضعف العلمي بضعف سلوكي وأخلاقي ، وهذا يعني أن ما يقارب ستة عشر عاماً من التعليم لم تجد فتيلاً ، وهر أمر يستحيل قبوله من الناحية المنطقية ، فالله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بالعقل وجعله حجة عليه وحثه على التفكير والتأمل والتدبر ، فإذا كان الأمر كذلك فإن التعليم العربي يخدر العقل باستمرار ، ولو ترك الإنسان على فطرته دون تعليم لوجدنا فيه خيراً كثيراً ، لأن العقل البشري بطبيعته تركيبية فهو يبحث ويسأل ويقارن ويحلل ولا يمكن أن يتخلى عن هذا الدور ما لم يكن يعاني من عجز خلقي أو تثبيط موجه.

خاتمة :

- يبدو لي أن علينا أن نعيد حساباتنا بخصوص التعليم وأن نستفيد من الناحية الهيكلية من تجارب الآخرين بدلاً من أن نظل نتخبط في محاولات الصح والخطأ.
- وللخروج من هذا المأزق الحرج يجب على العالم العربي أن يكون على قدر من الشجاعة والمسئولية وأن يعترف بأخطائه في هذا المجال ، ومن ثم تبدأ إعادة البناء بشكل كامل وصحيح :
- ١- الاهتمام بالطفل تربوياً وسلوكياً ونفسياً واجتماعياً ، فهم نواة المستقبل ومسئولية الأمة حتى ينضجوا.
 - ٢- الاهتمام الجدي والمدروس بتعليم الطفل وتعديل المناهج لتكون ملائمة لعقلية الطفل.
 - ٣- إعادة وضع المناهج التعليمية ، بحيث تكون حافزاً على التفكير وليست مجرد معلومات جاهزة تؤخذ كما هي.
 - ٤- تقليل عدد الطلاب في الفصول.
 - ٥- التركيز على جلسات الحوار والمناقشة الودية بين الأستاذ وتلاميذه.
 - ٦- تشجيع الابتكارات.
 - ٧- قيام علاقة ودية بين الأستاذ وطلابه.
 - ٨- الابتعاد عن التلقين في كافة مراحل التعليم.
 - ٩- التركيز على بناء الشخصية وتدعيم استقلالية الطالب.
 - ١٠- الاهتمام بالبحوث التربوية والإكثار منها.
 - ١١- وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.
 - ١٢- مراعاة أن تكون المناهج تساعد في صقل شخصية الفرد المسلم وأن تعمق ارتباطه بعقليته بشكل واع وصحيح.
 - ١٣- عدم التسرع في النواحي التربوية فالخطأ فيها قد يقضي على أجيال كاملة.
 - ١٤- تأهيل المشرفين والترحيب بالمخلصين والمتحمسين لأنهم هم الذين يدفعون بصدق حركة التعليم للأمام.
 - ١٥- العمل على تحسين المكانة الاجتماعية للمعلمين وليس هذا الأمر بعسير.

الهوامش:

- *- مساهمة وصلتنا استجابة لدعوة المجلة لفتح ملف التعليم في البلاد العربية ، ولا زالت الدعوة لأهل الاختصاص والمهتمين بذلك قائمة.

خواطر في الدعوة

أين دور العمل؟

مرت بالمسلمين فترات ضعف فيها العلم ، وخاض الناس في أمور العقيدة أو الحدث أو الفقه أو الدعوة دون دليل صحيح معتبر ، وتكلموا في أخطر قضايا المسلمين بكلام إنشائي مرصوف ، واستشهدوا بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أحياناً ، ويُتنبه لهذا النقص والخلل ، ويبدأ التركيز على المصادر الإسلامية الأساسية والنهل من ينبوعها واعتبار الصحة والدليل ، وتوثيق النصوص ، حتى يقوم البناء على أساس متين ، وهذا شيء لا غبار عليه بل هو مطلوب

وضروري ، ولكن كثيراً من الناس لا يستطيعون الاستمرار على طريق الاعتدال والوسطية فيغالون أو يقصرون في أي أمر يعرض عليهم ، فإذا رزقوا العالم الفطن ردهم إلى الطريق السوي. فالعلم لا بد منه ولا يقوم بنيان على الجهل ، ولكن أن يتحول كل الشباب المسلم المخلص إلى مفتين ، ونرى الطبيب والمهندس ومدرس العلوم أو الرياضيات أو مدرس الأدب واللغة لا يتعمقون في دراساتهم ولا ينفعون المسلمين باختصاصهم ، إلا في العموميات ، وتجد في مكتبة الطبيب كل كتب التراث ، ولا تجد المصادر الأساسية في مهنته ، فهذا وضع غير طبيعي وخلل في فهم الأمور. فهناك علماء متخصصون يستطيع هذا الأخ سؤالهم إذا استغلق عليه أمر أو أعبته مسألة. هكذا كان عمر -رضي الله- عنه يفعل إذا طرأت عليه مسألة جديدة ، يجمع الصحابة ويشاورهم ولا يتهياً مسبقاً بحفظ المتون وافتراض المشكلات والحلول. وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس يقول: أدركت هذا البلد (المدينة) وما عندهم علم غير الكتاب والسنة ، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء ، فما اتفقوا عليه أنفذوه ، وأنتم تكثر من المسائل وقد كرهها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

وكبار الصحابة لم يكونوا من مكثري الروايات فقد روى أبو عبيدة ابن الجراح أربعة عشر حديثاً ، وسلمان الفارسي ستين حديثاً ، ومعاذ ابن جبل مئة وسبعة وخمسين حديثاً ، وغالبهم لا يروي إلا مئتين حديث أو ثلاث مئة حديث ، وفي الصحيحين والسنن الثلاث والموطأ ثمانية وستين حديثاً في الحث على الجهاد. (العواصم والقواصم ٢ / ٤٨٨).

والصحابه -رضي الله عنهم- والتابعون كانت عنايتهم بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيام الليل ، وتفقد مصالح المسلمين ، ولا شك أن ذلك بعد تحصيل العلم الذي لا بد منه ، ولم يطلب القرآن العلم الزائد على الكفاية كما طلب وحث على العمل ومدح الخاشعين في الصلاة المعرضين عن اللغو والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس.

وإذا كان هذا منهج السلف وهم متفرغون للعلم بما فتح الله عليهم من الدنيا ، فكيف بنا الآن ونحن نساس بغيرنا ، ويقرر أمرنا غيرنا ، ونحتاج لأعداء الإسلام في كل صغيرة وكبيرة من أمور دنيانا ، والمهام الملقاة على عاتقنا كثيرة وحال المسلمين العلمية الآن أفضل مما كانت عليه قبل قرن ؛ فلم يبق إلا المزيد من العمل والتطبيق.

ولا يخطر ببال أحد أننا نقلل من أهمية العلم الشرعي أو نضعف من شأنه ، ولكننا ندعو إلى العمل بعد العلم ، كما لا يعني هذا أن نحجر على أحد في طلب العلم الشرعي والتزود منه ، بل لا بد منه وخاصة لمن يتصدى للدعوة إلى الله والذي يجمع بين تخصصه والعلم فهذا خير على خير، ولكن الغالب أنه لا يستطيع التمكن من الاثنين، فهذا ننصحه بالتزود من العلم المطلوب لمثل حاله وأن يفيد المسلمين في اختصاصه ونحن نعلم أن هناك علوماً شرعية لا بد منها لكل مسلم خاصة المتعلمين منهم حتى يدعو إلى الله على بصيرة ، ولا بد من اتقانها ، بعضها مجملاً ، وبعضها تفصيلاً ، وما خفي عنه فشفاء العي السؤال.

دراسات منهجية في النظر والاستدلال

أهمية أصول المعرفة في الإسلام

د. عابد السفيناني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :
فإن لكل قوم نظرية معرفية يتخذونها طريقاً للوصول إلى ما يجب عليهم اعتقاده والعمل به، سواء أدركوها إدراكاً كاملاً وكتبوها ونشروها للناس، أم احتسبت في أذهانهم وتصرفوا بموجبها ، ولنضرب بعض الأمثلة التي تبين المقصود :

إن من أصول "العلمانية" (١) أن الحياة العامة في الدولة والمجتمع لاتحكم بأحكام الشريعة الإسلامية ، وإنما تحكم بأي نظام آخر من الشرائع التي يضعها الإنسان بنفسه ، وترتب عندهم على تقديم "القوانين الوضعية" على "الشريعة الإسلامية" أن اعتقدوا أن الحكم بما أنزل الله فيما يخص هذه الأمور ليس واجباً ، وزينوا عقيدتهم المنحرفة بثلاث شبه :

الأولى : أن الدين الواجب التزامه إنما هو النطق بالشهادتين وأداء الشعائر ، وهذا مخصوص بقيد آخر معروف في القوانين الوضعية ألا وهو : جعل هذا الإلزام على الاختيار إن صح التعبير ومعنى ذلك أن من أراد أن يلتزم بذلك فله ما أراد ، ومن لم يرد فلا حرج عليه ، فإن "القانون" لا يعاقب على جريمة الردة ، فالأمر في النهاية إلى أن الدين الواجب التزامه هو ما اختاره الإنسان من الملل المتعددة ، حتى وإن كان كفراً بعد إسلام ، وليس عليه من شرط إلا الالتزام بالقانون الوضعي الذي تعمل به الدولة التي يعيش فيها.

فإن كان من أهل الإسلام فحكمه في القانون الوضعي أن يتصرف في أموره الخاصة حسب أحكام دينه أي الشريعة الإسلامية ، أما في الأمور العامة فلا يحق له الخروج عن أحكام القانون الوضعي المعمول به في الدولة التي يعيش فيها.

الثانية: يسلم بعض "العلمانيين" محافظة على شعور المسلمين بأن ما ورد في الشريعة الإسلامية ملزم جملةً وتفصيلاً للدولة والمجتمع إلا أنهم ينكصون على أعقابهم فيقولون : إن ما ورد فيها حق وصدق وملزم ، ويجب التحاكم إليه ، ولكن ليس ملزماً لنا وإنما هو ملزم لمن نزل عليهم القرآن أول مرة ، أما أوضاعنا المعاصرة فتحكم بمطلق المصلحة ، وليس منها بالطبع شيء من أحكام الشريعة ، اللهم إلا ما سبقت الإشارة إليه وهي الأحكام الخاصة ، أو ما تسمى في مصطلح القانون الوضعي "الأحوال الشخصية".

الثالثة : يعتقد بعض العلمانيين إمكان تغيير الشريعة الإسلامية وتطويرها لتصبح في نهاية الأمر هي "القوانين الوضعية" ويزعمون أن ذلك ممكن جداً ، لأن أحكام القانون تسعون في المئة منها موافقة للشريعة الإسلامية ، ويمكن تطويع ما بقي بعد ذلك.

وهذه الشبه أثارها الاستشراق أولاً ، ثم وزعها في العالم الإسلامي ، وتلقفها "العلمانيون" فيه، وخذعوا بها كثيراً من المسلمين، وتبناها كتاب كثيرون في الدراسات الإسلامية (٢) ، وهذه الشبه كما ترى انتجت ذلك الأصل الفاسد ، وأصبح طريقاً غير موثوق به ، لأنه استبعد الشريعة الإسلامية ، ورفض حاكميتها في المرحلة الحالية التي تعيشها البشرية ، وهذا قدر مشترك بين العلمانيين في أوروبا والعلمانيين في العالم الإسلامي ، ويتفاوتون بعد ذلك في أمور أخرى ، ونستطيع أن نكشف عن هذا القدر المشترك ، ونتبينه إذا تابعنا سويماً بعض جوانب الشريعة الإسلامية وموقف العلمانيين منها :

أولاً النظام الجنائي :

ويشمل الحدود والقصاص والتعازير... فإن موقف العلمانيين -التزاماً بأصلهم في المعرفة- أن لا يُسمع في هذا من الشريعة الإسلامية شيء ، فضلاً عن أن يعمل به ، فالأمور العامة -كما يقول أصلهم في المعرفة- يحكمها كل نظام بشرط أن لا يكون إسلامياً ، ولا بأس على الدول العلمانية أن تحتكم إلى القانون الفرنسي أو الألماني أو الإيطالي أو البريطاني أو الأمريكي... ولا بأس في الاختلاف في عملية الاختيار في مثل هذا مادام أن العلمانيين منفقون على إبعاد الشريعة الإسلامية عن هذا الجانب ، ولكل دولة بعد ذلك أن تختار أيضاً من دركات الانحراف عن الفطرة السوية ما تريد(٣).

ثانياً النظام الاقتصادي :

ومعلوم موقف "القوانين الوضعية" من الربا فإنها اجتمعت على تحليله ونشره بكل طريق ، ويحسن بنا أن نربط بين العلمانيين في أوروبا والعلمانيين في العالم الإسلامي ، فنقول : إن الربا كان محرماً في الدين النصراني ، وقد تحايل اليهود على تحليله ونشره بين النصارى رغبة منهم في إبعاد النصارى عن بعض ما كانوا مستمسكين به من شرائع سماوية. ولقد ثبت في الشريعة الإسلامية أن "الربا" كان محرماً على أتباع الأنبياء -عليهم السلام- ومنهم أتباع عيسى -عليه السلام- ، فالحرمة إذاً ثابتة للربا في جميع الشرائع التي أرسل بها رسله جميعاً ، ولكن "العلمانيين" في كل مكان رفضوا الاحتكام إلى هذه الشرائع (٤)، وإن مما ساعد على تحليل الربا ونشره في أوروبا موقف الكنيسة المنحرف عن الدين، وعدم وجود "البديل" الذي يمكن أن تسيّر الحياة العلمية على أساسه.

أما في العالم الإسلامي فإن البديل هو منهج الاقتصاد الإسلامي ، وهو موجود فعلاً ، بل هو الأصل التي كانت تحتكم إليه المجتمعات الإسلامية طيلة أربعة عشر قرناً ، ولكن اجتماع العلمانيين في كل مكان على نصر "القوانين الوضعية" ، وعلى تصدير أصلهم في المعرفة وتعاونهم على ذلك جعل هذه الشعارات تستقر في العالم الإسلامي ومنها : "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ، ولا دين في السياسة ولا سياسة في الدين(٥).

ومقتضى هذا الأصل المعرفي المنحرف أن الأحكام في الأمور العامة هي شريعة قيصر أي القوانين الوضعية ، وليست هي الشريعة الإسلامية ، هذا هو أصل العلمانيين الذي يسعون إلى التمكين له قولاً وعملاً.

ثالثاً النظام الأخلاقي :

إن ثورة العلمانيين في أوروبا وفي العالم الإسلامي على النظام الأخلاقي متشابهة جداً. فلقد قال العلمانيون في أوروبا ما للأخلاق والدين، ونادوا بإخراج المرأة عارية الساقين، حاسرة الرأس، وأن تتخذ الأصدقاء، وترقص في المسارح، وإذا قلت لهم إن الدين لا يقبل ذلك، قالوا: أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أصل معرفي يتحجون به عند الخصومة والنزاع. وكذلك العلمانيون في العالم الإسلامي ما زالوا ينادون بذلك، ولا عليهم من النتائج الخطيرة التي تترتب على ذلك، من فساد فطرة المرأة، وضياع بيتها، وأطفالها، وتدمير مجتمعاتها بإفساد النوع الإنساني، كل ذلك لا يهمهم، المهم أن تخرج المرأة بدعوى الاستفادة من طاقات المجتمع، وهم أول من يعلم أن المجتمع قد ازدحم بكثير من الشباب الذين لا يجدون عملاً ، ونرى كثيراً من المصلحين يسعون لاستثمار طاقات الشباب المعطلة والاستفادة من أوقاتهم المهذرة ، وتارة يُوفقون في ذلك ، وتارة لا تسعفهم الفرصة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة التي يستفد منها الشباب والمجتمع في

أن واحد ، أما الذين شغلوا بقضية المرأة ، فهم لا يتعاطفون مع هؤلاء المصلحين ، وحرصهم على الاستفادة من طاقات المرأة أكثر من حرصهم على الاستفادة من طاقات الشباب ، وهم أول من يعلم أن الشباب هم الذين يتضررون من البطالة ، ويتضرر معهم المجتمع ، أما المرأة فإن المجتمع إذا كان سوياً ومحافظاً على فطرته الإنسانية من وجود زواج، وأسر، وأبناء ، فإن المرأة هي قاعدة البناء فيه، ولا نتصور أن تقع في البطالة، ولا يمكن أن نقمها في تلك الأعمال التي أقمها فيها "العلمانيون" في أوروبا فأفسدوا البيت والشارع معاً ، وهكذا يريد إخوانهم في العالم الإسلامي ، أن يسلكوا طريقهم ، ويبنوا على أصلهم الفاسد ويدلّسوا على الناس بأنهم لا يعارضون الدين ، ومن المعلوم أن هؤلاء الذين أصروا على إخراج المرأة قد فشلت تجربتهم ، ومازال حكماء أوروبا يشكون من فساد هذه التجربة (٦) ، ولكن العلمانيين في العالم الإسلامي مازالوا حريصين على بقاء هذه التجربة الفاشلة وانتشارها ، ويصرون على إبعاد "حكم الشريعة الإسلامية" عنها. وينبغي للبصير أن يتأمل في مواقف المخالفين من قضية المرأة ومن النظام الاقتصادي والنظام الجنائي ، لتكشف له حقيقة مهمة طالما أراد كثير من المخالفين إخفائها والتستر عليها. إن "العلمانيين" في العالم الإسلامي ، كما هو معلوم لا يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم- ليس بنبي ولا رسول ، ولا يقولون إن القرآن ليس هو كتاب الله ، ولا ينكرون اليوم الآخر ، ولا يرفضون النطق بالشهادتين ، ومنهم من يصلي ويصوم ويحج...

وإذا أردت أن تتحقق من الخلاف بيننا وبينهم فارجع إلى ذلك الأصل المعرفي الذي سبقت الإشارة إليه ينكشف الأمر لك بجلاء ، فتجده أنه خلاف على قبول حاكمية الشريعة الإسلامية في الأمور العامة في الدولة والمجتمع ، واتفاق نسبي في قبول ما جاءت به في الأمور الخاصة "الأحوال الشخصية" ، والصلاة والصيام والحج.

وإذا قيل لهم : كيف جعلتموها مصدراً في هذه الأمور دون تلك ، ولماذا لا يكون أصلكم في المعرفة هو قبول ما جاءت به جملة وتفصيلاً ، أليس الذي جاء بها محمد -عليه الصلاة والسلام- ، والذي أرسله بها هو الله خالق السموات والأرض ، قالوا : بلى !!

وإذا قلت لهم من هو الحكم العدل ، ومن هو العليم الخبير ، ومن هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله؟ فسيقولون : الله ، فقل أفلا تقبلون حكمه في "النظام الجنائي" ، وفي النظام الاقتصادي ، وفي النظام الأخلاقي.... ، فأني توفكون.

((أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)) (٧).

الهوامش :

١- العلمانية : نشأ هذا المذهب الذي أطلق عليه هذا الاسم في أوروبا وهو "حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة .. باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية" وأقرب ترجمة لها عند الأوربيين "اللاينية" . مذاهب فكرية معاصرة / ٤٤٥-٤٤٦
٤٤٦ للأستاذ محمد قطب ، دار الشروق ١٤٠٣ هـ ، وكتاب "العلمانية" رسالة ماجستير للدكتور سفر الحوالي .

٢- الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، للمستشرق جب / ٢٦-٧٩-١٢٢-١٢٣ ، الإسلام في التاريخ الحديث للمستشرق ولفرد سميت / ٧-٧-٨ ، القانون المدني الأعمال التحضيرية ، الدكتور أحمد السنهوري ٢٠/١ ، وأسبوع الفقه الإسلامي / ١١٤ الدكتور عبد المنعم الصده ، وقد أورد

الدكتور الأشقر قولهما وناقشهما فراجعه فإنه مفيد ، انظر كتاب "الشريعة الإسلامية لا القوانين الجاهلية" .

- ٣- انظر الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، للمستشرق جب / ١٧٥ ، فقد قال : إن العالم الإسلامي له حق الاختيار في تحديد طبيعته في الحياة ولكن بعد أن يتابع الفكر الغربي ويخضع للقوانين الوضعية ، وقصده كما هو ظاهر أنه ليس لزاماً على المسلمين أن يتركوا كل ما جاء به الدين الإسلامي ولا بأس بالمحافظة على بعض عاداتهم الإسلامية وطبائعهم الخاصة ، ولكن الذي يطلبه منهم الاستشراق وما يتبعه من المذاهب الحديثة أن يسايروا العالم الغربي من حيث الخضوع للقوانين الوضعية وترك التحاكم للشريعة الإسلامية .
- ٤- الربا وأثره على المجتمع الإنساني ، الدكتور الأشقر / ٢٩ - ٤٨ - ٦٧ .
- ٥- العلمانية ، للدكتور سفر الحوالي / ٦٤٨ - ٧٠٦ .
- ٦- انظر شهادة الكسب كاريل / ١٩٨ .
- ٧- الأنعام / ١١٤ ، وجامع البيان ٧ / ٧٠ .

نقد

قراءة في فكر مالك بن نبي

-٤-

محمد العبدية

كان تشخيص أمراض العالم الإسلامي عند مالك بن نبي مقدمة للبحث عن العلاج ، أو للبحث عن أسس النهضة ، وكيف تبدأ؟ ومن أين تبدأ؟ إن بلداً مثل اليابان بدأ نهضته في منتصف القرن التاسع عشر (١) وهي نفس الفترة التي بدأ الحديث فيها عن النهضة في العالم الإسلامي ، فلماذا كان هذا البطء في (الإقلاع)؟.

السبب برأى مالك بن نبي هو عدم وجود منهج واضح للإصلاح ولا نظرية محددة للأهداف والوسائل وتخطيط للمراحل. "فإذا حلت جهود المصلح الإسلامي وجدنا فيها حسن النية ، ولكننا لانجد فيها رائحة منهج " (٢) "وليس هناك تحليل منهجي للمرض وليس إلا أن عرف المريض مرضه فاشتد في الجري نحو الصيدلي -أي صيدلي- يأخذ من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام" (٣) "وواقعنا الآن إما فكرة لا تتحقق أو عمل لا يتصل بجهد فكري" (٤). لا شك أن هذا الكلام حول (المنهج) صحيح ودقيق ، فليس هناك دراسات عميقة وتحليلية لأمراض المسلمين ، وما هي الحلول والمقترحات وما هو المهم والأهم ، وكل الدراسات تأخذ جانباً من الجوانب تركز عليه والحل الأحادي هو الغالب ، وأعمال كثير من المؤلفين كانت تبريراً ودفاعاً أمام الهجوم الغربي الاستشراقي على الإسلام (٥) ، وليست أعمالاً فيها تخطيط للحاضر والمستقبل ، غابت المؤتمرات التي تخرج بنتائج فعلية واقعية وكثرت تلك التي توصي بوصايا لا تخرج عن دائرة الورق التي كتبت عليه.

والذين كتبوا في أوائل النهضة كتابات جيدة مثل الشيخ رشيد رضا لم يستفد منها كثيراً ولم تنجح ويؤخذ الايجابي منها ، ويبنى عليه ، وكذلك الذين جاءوا من بعده لم يكن هناك خطة علمية لدراسة أقوالهم وآرائهم ، وكأنما كل من يأتي يريد البدء من الصفر ، بل نستطيع القول : إن كثيراً من

الأخطاء التي وقعت سواء في مجال الدعوة أو غيرها إنما كانت بسبب غياب المنهج أو عدم الالتزام بالمنهج.

وإذا كنا لا نملك الوضوح من الناحية النظرية فضلاً عن وجود منهج تطبيقي عملي فهذا لا يعني عدم وجود المنهج ، فالقرآن الكريم والسنة أوجدا المناخ المناسب لأن يستنبط العلماء منهج أهل السنة في النظر والاستدلال وطرق الحياة التي يريدنا القرآن (٦) ، فعندما يقول سبحانه : ((وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)) نجد الصحابة يفهمون هذا التوجيه ويلتزمون به ، فأمر المؤمنين عمر بن الخطاب لا يعلم معنى كلمة ((وَأَبَا)) من آية ((وَفَاكِهَةً وَأَبَا)) فلا يتكلف الجواب ولا يحاول التعامل ، بل يرى أنه من التكلف معرفة كل شيء ، وأبو بكر -رضي الله عنه- يقوم بعمل علمي طبقاً لمنهج ، عندما أعطى تعليمات مشددة لزيد بن ثابت ، الذي كلفه بجمع القرآن ، وكذلك عثمان بن عفان يشكل لجنة لجمع الناس على مصحف واحد (٧).

وفهم الكتاب والسنة هو الذي جعل الإمام مالك والأوزاعي وأمثالهما يكرهون الجدل والخصومات في الدين ويركزون على العمل ، وقد وضح هذا المنهج بشكل نظري في كتابات ابن تيمية وخاصة كتابه العظيم (درء تعارض العقل والنقل) وكان بالإمكان بناء نهضة علمية عملية لو أخذ المسلمون بهذا المنهج ، ولكنهم مع الأسف غرقوا في الجدل وعلم الكلام فأبعدوا عن مجالات القيادة.

والجدل أسهل من البحث والاستقراء والخروج بنتائج في شتى مجالات العلوم. وإذا كان للمنهج هذه الأهمية "فإن نجاحه مرتبط بتناول المشكلة من جانبها معاً (الاستعمار والقابلية للاستعمار) ، فإذا نظرنا إلى جانب دون الآخر فقد غامرنا برؤية مشكلة مزيفة" (٨). لذلك وقبل أن ننتقل إلى موضوع (إقلاع) العالم الإسلامي باتجاه بناء حضارة لا بد أن نعرض وجهة نظر مالك بن نبي في الاستعمار الذي هو الجانب الخارجي من المشكلة ، أو الجانب السلبي لنكون على وعي تام بما يدبر لإعاقة النهضة الإسلامية.

الاستعمار والصراع الفكري :

إن عرض مشكلة الاستعمار يبدو أكثر أهمية إذا علمنا أنه ركز هجومه على العالم الإسلامي، بينما كان أقل شراسة ولؤماً مع الشعوب الأخرى ، وحاول إجهاض أي عمل إسلامي مثمر ، واستخدم أخبث الوسائل ومنها الوسائل الفكرية.

ومالك بن نبي وإن كان ممن لا يعلقون أخطاء وتقصير المسلمين على شجب (الاستعمار) وحده بل يهتم بالعوامل الداخلية ، ويرى أنها الأساس في البحث والتحليل ، إلا أنه خبير بخفايا هذا الاستعمار ومواقفه من قضايا المسلمين ، لذلك جاءت ملاحظاته وتعليقاته على هذا الجانب فيها عمق ومعاناة ، فقد قرأ الكثير وعانى الكثير من استعمار فرنسا للجزائر ، وهو يرى أننا إذا أردنا أن نتقصى الحركة الاستعمارية من أصولها فلا بد أن ننظر إليها كعلماء اجتماع لا كرجال سياسة (٩) ، فظاهرة الاستعمار من طبيعة الرجل الأوربي ، فكلما وقع اتصال بين الأوربي وغير الأوربي خارج إطار أوربا فهناك (موقف استعماري)(١٠) بينما نجد في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية أن رحلات ابن بطوطة وأبو الفداء والمسعودي لم تثر شهيتهم للاستعمار. ورحلات مثل هذه تثير شهية الأوربي ، إن تحليل (منوني) الكاتب المتخصص بنفسية الاستعمار ، يقول : «إن الأوربي يحب عالم دون بشر» ولو قال منوني إن الأوربي يحب عالم دون شهود على جريمته لكان هو الصواب(١١).

وحتى بعض الأفراد الغربيين الذين يشاركون في المعركة ضد الاستعمار إنما يشاركون مادامت في النطاق السياسي ، وسرعان ما ينعزل عنها حينما تأخذ طابع الصراع الفكري ، فالرجل المستعمر لا يحق له الدخول في الميدان الفكري» (١٢).

وفي ميدان الصراع الفكري وخاصة مع الشباب المسلم الذي يدرس في الغرب نرى الاستعمار يستخدم بخبث منطق الفعالية وخلصته : (بما أننا نحن المسيطرون ونحن الأقوى إذن فأفكارنا صحيحة).

"ويعتبر هذا اللبس المفروش في أعماق نفسية هذا الشباب هو النواة التي تدور حولها جميع دسائس الصراع الفكري ومناوراته" (١٢). وقد يرفع الاستعمار أمام أعين المستعمرين شعاراً صحيحاً وهو يعلم أن المستعمر سيرفضه لأن الذي رفعه عدو ، وبهذا يكون قد صرفه عن عمل إيجابي قد يفكر فيه في المستقبل.

يروى مالك بن نبي تجربة من تجاربه فيقول : «انعقد في باريس مؤتمر العمال الجزائريين بأوروبا، وبهذه المناسبة تقرر من لدن المشرفين على المؤتمر توزيع كتيب لصاحب هذا العرض تناول فيه مشكلة من مشاكلنا اليوم ، ولكن أصحاب الاختصاص في الصراع الفكري لم يفهم أن يسدوا الطريق على الأفكار المعروضة ، ولذا وجهت الدعوة إلى السيدة الألمانية التي كتبت (شمس الله تشرق على الغرب) وفيه مدح وتمجيد للحضارة الإسلامية ، وتقدمت السيدة وقدمت كتابها للمؤتمر ، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب» (١٣).

ومن وسائله الماكرة ، التي لا يزال يتقن استعمالها رمية للمسلم بشتى الاتهامات ، بل يحاول الإيحاء بأن المسلم منبوذ القرن العشرين ، وفي هذه الحالة يصبح سلوك المسلم ردود أفعال، وترفع عنده توتر طاقات الدفاع حتى يكون في حالة توتر شاذة ، ويعيش إما مُتُهَمّاً أو مُتُهَمّاً، وفي هذه الظروف فإن مختبرات الاستعمار تصرف كل إمكانيات المسلم إلى معارك وهمية ، يُسمع فيها قعقة السلاح ودوي الحرب ولكنها معارك مع أشباح ، والمسلم يظن أنه انتصر ويرتاح نفسياً ، والتاريخ الإسلامي الحديث لا يخلو من هذه المعارك الوهمية كتلك التي خاضها الأفغاني ومحمد عبده ضد أرنست رينان وجبرائيل هنوتو ، والمشكلة ليست في الدفاع عن الإسلام ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم" (١٤).

لقد تدخل الاستعمار في كل شيء حتى لا يترك فرصة لأي بعث إسلامي ، فكانت الإدارة الفرنسية في الجزائر هي التي تعين المفتي والإمام لا طبقاً لمشئته جماعة المسلمين بل تبعاً لهوى المستعمرين ، وبذلك تجمع في يدها أنفذ وسائل الإفساد ، فاختيار رجل يؤم الناس في المسجد لا يكون بناء على تميزه بضمير حي أو علم بأصول العقيدة ، بل يراعى في ذلك ما يقدمه للإدارة من خدمات ، حتى كأنه (جاويش) صلاة ، ولا شك أن هذا التحكم في شعائر الدين مما يقض مضاجع أصحاب العقائد من المؤمنين لما يرون من أحداث غاية في الفساد : إمام جاسوس، ومفت فاسد، وقاض مرتش، وغاية الاستعمار أن يجعل من الإسلام صورة عجيبة ، وبذلك يكس العقبات والعوائق على طريق النهضة الإسلامية" (١٥).

دور الاستشراق :

كان للمستشرقين دور بارز في محاولة تشويه وتزييف التاريخ الإسلامي والطعن في الإسلام نفسه ، ولكن مالك بن نبي يركز على ناحية معينة في إنتاجهم كان لها أثر نفسي سيء في أذهان المسلمين. فبعض المستشرقين خلطوا في كلامهم بين المدح للإسلام وبين وضع السم في الدسم، هذا المدح

جعل بعض المسلمين يستسلمون لنزعة الفخر والعيش مخدرين على أمجاد الماضي، وكل من أراد الدفاع عن الإسلام استشهد بكلام لأحد المستشرقين ، "وهكذا يتبين لنا أن الإنتاج الاستشراقي بكلا نوعيه (المادحون والمفندون) كان شراً على المجتمع الإسلامي" (١٦) "وعندما يعلن الاستشراق أنه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم ، ربما يؤدي بنا هذا الموقف المتطرف إلى تلافيه بسطحية نشاهد أثرها في إنتاج بعض المفسرين مثل طنطاوي جوهرى" (١٧) وهو التفسير الذي حول القرآن إلى مادة للعلوم ، والقرآن يوجد المناخ العقلي والنفسي للروح العلمية وليس هو كتاب جغرافيا أو فلك أو أحياء..

وأخيراً لابد أن نعلم أن المكر السيء يحيط بأهله "فالاستعمار الذي يهلك المستعمرين مادياً يهلك أصحابه أخلاقياً ، وذلك ما يشهد به تاريخ أسبانيا منذ اكتشاف أمريكا" (١٨) "إن الأمم الاستعمارية على الرغم من إدراكها لأخطار الاستعمار ، تعمى عن هذه الأخطار كأن هنالك قدراً محتوماً يقضي على يقظتها ووعيتها" (١٩).

ويجب أن نعلم أيضاً أنه رغم كل هذه العوائق ، استطاع المسلم التغلب من الأنشطة التي أراد الاستعمار عقدها حول عنقه ، فما زالت فطرته وإسلامه يعطيانه القوة والدافع لتلمس الطريق الصحيح.

ما هي نقطة البدء؟ ...

الإقلاع :

الإيمان العميق بالمبدأ الذي يعتنقه المسلم هو نقطة البدء ، هذا الإيمان الذي يعطيه قوة فوق قوته، واحتمالاً فوق احتمالته، فيتغلب على المصاعب التي تعترضه، ويتحول هذا الإيمان إلى عاطفة قوية جارفة "فالروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير الجاذبية الأرضية" (٢٠) "فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، ويفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان، فالإيمان هو المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية" (٢١) والمسلم الذي يصل إلى درجة (التوتر الروحي) يشعر بالسعادة الغامرة عندما يبني أول مسجد في المدينة ويحمل (لبنتين) بدلاً عن واحدة ، "وفي هذه الحالة الروحية صبر بلال - رضي الله عنه - ولم تستطع قوة في الأرض أن تخفض إصبعه وهو يقول : أحد ، أحد" (٢٢).

هذا الإيمان يصنع المعجزات ، عندما تختفي الأنانيات ويشارك الجميع عن طواعية في بناء حضارة، وفي المجتمع الإسلامي الأول كان المنافقون وحدهم يتخلفون عن أي عمل فيه تعب أو نصب ، وكل الكتب والمحاضرات والخطب لا تكفي لإنشاء أمة لا ترتفع إيمانياً وأخلاقياً إلى درجة عالية، كما جاء في الحديث عن جندب بن عبد الله قال : «تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً» (٢٣).

والقرآن الكريم وضع ضمير المسلم بين حدين هما: الوعد والوعيد، ومعنى ذلك أنه قد وضعه في أنسب الظروف وهذان الحدان ينطبقان على مفهوم الآيتين الكريمتين :

أ- ((فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)).

ب- ((إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)).

وبين هذين الحدين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذي يبذله مجتمع طبقاً لأوامر رسالة" (٢٤).

يقول الدكتور (الكسس كاريل) معبراً عن هذه الحقيقة: "فالأمل والإيمان والحمية تؤثر في الجسم تأثير البخار في العجلة المحركة" (٢٥) "وإذا نجحت إحدى الأفكار في تغيير سلوك البشر فذلك لأنها تنطوي على عناصر عاطفية إلى جانب العناصر المنطقية، إن الإيمان هو الذي يدفع الإنسان إلى العمل وليس العقل ، والذكاء يكفي بإنارة الطريق ولكنه لا يدفعنا إلى الأمام" (٢٦). هذه الطاقة الإيمانية جعلت الفرد المسلم في عصر النبوة يقسم ثروته مع أخيه الذي هاجر إليه، فالمؤاخاة التي تمت بين المهاجرين والأنصار هي أول عمل تاريخي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ، ولولا قوة شبكة العلاقات الاجتماعية لما استطاع المجتمع الإسلامي الإقلاع باتجاه حضارة، وفي حالة تمزق هذه العلاقات قد توجد العوالم الثلاثة (الأفكار، والأشخاص، والأشياء) ولكنها لا تعني شيئاً ، وقد يكون هناك مسلمون متحمسون وهناك أفكار ولكن الشبكة ليست قوية. إن قصة المؤاخاة ليست خيالية، ولا هي أقرب للخيال، فالإسلام دين واقعي، وليس صعباً أن يحقق المسلمون شيئاً من هذه (المؤاخاة) ، والآن توجد (إخوة إسلامية) خطابية وعظمية ولكن لا يوجد (مؤاخاة) عملية فعلية ، من هنا المنطلق ، ومن هنا البداية.

"يتبع"

الهوامش :

- ١- لاشك أن هذه نهضة صناعية ، وليست نهضة حضارية بالمعنى الشامل ، ولكن لو أن اليابانيين طالبوا بنقل مفاصل حضارة الغرب وسلبياتهم كما يطالب المستغربون عندنا لما نجحوا في بناء هذا المجد الاقتصادي ، لقد حافظوا على نوع من التقاليد وأخلاق صارمة في التعامل حتى استطاعوا إقامة هذه النهضة.
- ٢- الأفرو آسيوية / ٧٨.
- ٣- شروط النهضة / ٥٩.
- ٤- وجهة العالم الإسلامي / ٧٥.
- ٥- آفاق حد الرية / ٤٦.
- ٦- إنتاج المستشرقين / ٢٨.
- ٧- إنتاج المستشرقين / ٣٣ .
- ٨- وجهة العالم الإسلامي / ٨٦.
- ٩- وجهة العالم الإسلامي / ٨٥.
- ١٠- في مهبط المعركة / ١٦.
- ١١- في مهبط المعركة / ٢٨.
- ١٢- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة / ٩.
- ١٣- مشكلة الأفكار / ١٤٠.
- ١٤- إنتاج المستشرقين / ١٦.
- ١٥- الصراع الفكري / ٦٧٦٨.
- ١٦- ١٧ إنتاج المستشرقين / ٢٥.
- ١٨- ١٩ وجهة العالم الإسلامي / ١١٣.
- ٢٠- المصدر نفسه / ٢٦.

- ٢١- المصدر السابق/٢٧، وقد يستغرب القارئ ويقول : كيف نجمع بين كلامك في نهاية المقال السابق عن أن توحيد الإلهية لم يكن واضحاً تماماً عند مالك. وبين كلامه عن الإيمان وأثره ومهاجمته لعلم الكلام ، وقد نبهني أحد الأصدقاء إلى أن ظاهر كلامه لا يدل على هذا ، مع قناعته بوجهة نظري ، فذكرت له أنني استنتجت هذا الكلام من مجموع قراءاتي لكتبه، كما أنه في النية كتابة مقال مستقل عن بعض أخطائه ومنها هذا الموضوع، وسأوضح الدليل على ذلك إن شاء الله ، وقد يزول الإشكال إذا عرفنا أنه يتكلم هنا عن بناء الحضارات بشكل عام ، فالمسلم عنده طاقة روحية وغير المسلم عنده هذه الطاقة في بدء دورة الحضارة كما يذكر في أكثر كتبه.
- ٢٢- ميلاد مجتمع / ٢١ ،
- ٢٣- صحيح سنن ابن ماجه ، بتحقيق الألباني ١ / ١٦ ،
- ٢٤- ميلاد مجتمع / ٢١ .
- ٢٥- تأملات في سلوك الإنسان / ٨٤ ،
- ٢٦- المصدر نفسه / ١٣٩ .

الزيارة بين النساء على ضوء الكتاب والسنة - ٣ -

خولة درويش

إن المؤمنة حيثما جالست غيرها تحرص على أن لا تقذف بكلامها دون تمحيص ، فهي تسعى لتكون أقوالها فضلاً عن أفعالها في ميزان حسناتها.

لذا تتواصى مع أخواتها المؤمنات بكل ما فيه خير وصلاح ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وإن لمست نفوراً وشقاقاً بين البعض منهن فهي تعمل على إصلاح ذات البين ، وإطفاء نار العداوة ، تتمثل قوله تعالى : ((لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)) [النساء ١١٤].

المتأمل في هذه الآية يجد أن غالبية النجوى لا خير فيها إلا هذه الثلاث :

- ١- الأمر بالصدقة.
- ٢- الأمر بالمعروف ، ونجمعهما تحت عنوان الدلالة على الخير.
- ٣- الإصلاح بين الناس.

ومن تكلم بها أو بأحدها فهو في قرابة إلى الله تعالى ، بل وكلامه من أفضل الذكر فقد قال ابن تيمية رحمه الله :

«إن كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب ، مما يقرب إلى الله ، من تعلم علم ، وتعليمه ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، فهو من ذكر الله ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع ، بعد أداء الفرائض ، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهاً فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله» (١).

١- الدلالة على الخير :

فإذا رزقك الله فهماً وعلماً ، أو قوة وعافية ؛ فاستخدمها لمعاونة المسلمين وتسهيل حاجاتهم ، سواء بعملها بيدك ؛ أو بتعليمها غيرك ، فما ذلك إلا زكاة الصحة التي حباك الله إياها .
"كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة" (٢).

إن كثيراً من بلادنا المسلمة مليئة بالأزمات الاقتصادية بسبب القحط أو الحروب. وتنشط المؤسسات التبشيرية والشيوعية للاستفادة من تقصيرنا جميعاً ، فتستغل آلام المكومين لتقدم لهم الغذاء واللباس والدواء طعماً لجذبهم به لمصيدها ، وتعمل جاهدة بكل الوسائل لجلبهم لساحتها ، بتربية أبنائهم أو تعليمهم أو تطبيبهم...

فهل استفدنا من زيارتنا ووقتنا الضائع؟! فتدارسنا أحوال أمتنا ، وعلما بعضنا أن نخيط الثياب التي تستر عورات أخواتنا المسلمات المحتاجات.

ولنصنع من الطعام ما يمكن أن يرسل لهن. ولنثبت أننا المسلمات اللاتي يهمن أمر الأمة المسلمة. لا الدمى المتحركة التي تُزين لتلهي من حولها وتبعد عن جادة الصواب.. فهل النصرانيات أقدر منا؟! أم أنهن أكثر تضحية وإيماناً؟! نحن حفيدات عائشة وخديجة وأسماء ، أو لسنأ أجدد أن نضحي من أجل حقنا الأكيد أكثر من تضحيتهن من أجل باطلهن؟.

ويتامى المسلمين؟! من ينجينا من الإثم إذ يُحملون إلى البلاد الشيوعية أو النصرانية ليربوهم على دينهم؟.

ماذا نقول غداً لرب العالمين إن سألنا عنهم وعن تفریطنا وتقصيرنا في حقهم؟! أفلا يجدر بنا أن نتكفلهم؟ وماذا لو ضمت الأسرة إليها فرداً أو اثنين لتنشئتهم (لا تبنيهم فهو محرم) وتربيتهم؟.

أو إن عملت الجمعيات الخيرية المسلمة لرعايتهم ، وساهمت المرأة المسلمة بما تستطيع ، سواء بالمادة أو بالجهد الذي تقدر عليه ، من عمل يدوي أو تعليمي أو توجيهي؟!
قد يقال : إن هذه أعمال ضخمة لا تقدر عليها جهود فردية قليلة المورد.

((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)) [الرعد ١١] فهذه الفكرة إن اقتنعت وإياي بها وأقنعت في زيارتك صديقتك المؤمنة وجارتك المسلمة لابد وأن نحقق خيراً كثيراً للمسلمين ، ونكون قد ساهمنا معاً في النهضة الإسلامية.

ولاشك أن ذلك مطلب شرعي بدلاً من أن تظل المسلمة مجال تنافس الدول لتلهيها عن رسالتها بمستحضرات التجميل ، وأدوات الترهل والترفيه.

وبذلك نكون قد ارتقينا بزياراتنا عن اللغو إلى التناصح لما فيه خيرنا وخير المسلمين ، وفي عملك ذلك أجر الصدقة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله. قال: قلت: ثم أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها ثمناً عند أهلها وأكثرها نفعاً. قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» (٣).

فلك في معاونتك لأختك المسلمة أياً كانت تلك المعاونة الثواب الجزيل فعملك من أفضل القربات. فإن كانت مريضة أعجزها المرض عن أداء مهمتها تساعديها في تعليم أولادها الصغار ، أو عمل طعام لهم ، أو ترتيب بيتها وتنسيقه بدل أن تكون زيارتها للكلام والتسلية فحسب.

وإن كانت نفساء أمضها ألم الولادة : تقومين على رعايتها ورعاية وليدها. فهذا أجر قد ساقه الله إليك، ولا يقدر عليه غيرك، وإن كانت جاهلة بفنون المنزل، أو حتى في التعامل الاجتماعي تعلمينها وتتصحينها فالدين النصيحة، ولك في كل ذلك أجر الصدقة، ولنذكر معاً حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (٤). فلنكن في حاجة أخواتنا المسلمات، والله معنا في قضاء حاجاتنا وتفريج كرباتنا. وأينا تستغني عن غيرها؟! وإن استغنت الواحدة عن غيرها بأعمالها، فلا بد أن تحتاج إلى التناصح والمشاورة معهن.

فما أجدرنا نحن المسلمات الحريصات على حسن تنشئة أبنائنا ونراقب الله في تربيتهن ما أجدرنا أن نستفيد من فترة زيارتنا للتناصح في تربيتهن، وحل مشكلاتهن ليحل العمل والتوجيه محل الشكوى والأسى الذي لا يصح خطأ ولا يغير واقعاً.

فإن أفلقنا أن نجد بعضاً من أبناء المسلمين يفوتهم الفكر الديني الواعي، أو لا يلتزم آخرون بالتعاليم الشرعية، أو لا يجيد الكثير منهم التعامل مع الآخرين ... فعلينا نحن المسلمات أن نسعى إلى تصحيح هذا الواقع المرير بكل ما نستطيع وبصبر وجلد.

ذلك أن التربية ليست أن تلقي الكلمة والتوجيه على أبنائنا ثم ننتظر الاستجابة، فالمغريات كثيرة لا تنتهي... والتربية طويلة وشاقة تبدأ من نعومة أظفارهم.

فلا بد من الرعاية الدؤوب لهم دون ملل. نتابعهم باستمرار في جدهم وهزلهم، لعبهم ومذاكرتهم. وبعد أن نعمل جهدنا لنكون القدوة الحسنة لهم في كل خلق فاضل كريم، نتناصح مع أخواتنا المؤمنات في حسن اختيار القصص المفيدة التي تثقف الطفل وتعدده لحياته المستقبلية، وتربي وجدانه فيعرف كيف يعطي كل ذي حق حقه. ونبعده عن القصص الخرافية والبوليسية وكذلك عن البرامج الإعلامية التي لا تليق، ونسعى بالتشاور مع بعضنا لنحيط أبناءنا بالصحة الطيبة التي تعينهم على الخير.

فالشكر كالداء المعدي، سرعان ما ينتشر بالمخالطة. فنبعدهم عنه لنحفظ عليهم دينهم وخلقهم. وهكذا نشحذ هممنا لتكون زيارتنا هادفة لما يرضي الله وينفع المسلمين.

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلاً جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله. أي الناس أحب إلى الله؟ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله - عز وجل - سرور تدخله على قلب مسلم».

فلنحرص على نفع المسلمات وإدخال المسرة على قلوبهن، ولا نبخل بنعمة حباننا الله إياها أن نخدم بها مسلمة فنفرج بها كربتها ونعمل ما فيه مصلحتها، وندعوها إلى اتباع الخير الذي نريده لأنفسنا، قال تعالى: ((وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [التوبة ٧١].

ولا تقول المسلمة: مالي وللناس، فإني أدعهم وشأنهم ولا أتدخل في خصوصياتهم، نعم ذلك في أمور الدنيا المباحة التي يستوي فيها عملها وتركها «فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» أما ما فيه خطر محقق وحتى لو كان ذلك في أمور الدنيا، فالواجب النصح فالدين النصيحة. إن المؤمنة عليها مهمة النصح والدعوة إلى دينها على قدر ما تستطيع، ومن روائع ما روته لنا السيرة، قصة الصحابية الجليلة أم سليم.

(كانت أم سليم أم أنس بن مالك من السابقات للإسلام من الأنصار خطبها أبو طلحة قبل أن يسلم وبعد وفاة زوجها فقالت : يا أبا طلحة ألسنت تعلم أن إلهك الذي تعبدته نبت من الأرض، قال: بلى. قالت : فلا تستحي أن تعبد شجرة؟! إن أسلمت فإني لا أريد صداقاً غيره. قال: حتى أنظر في أمري. فذهب ثم جاء. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالت : يا أنس زوج أبا طلحة. فزوجها)(٥).

إنه مهر كريم لامرأة داعية كريمة ، دعته إلى عبادة الله وحده ، والبعد عن الشرك به ، فشرح الله صدره وأمن فأكرم به من مهر.

وما هلك بنو إسرائيل إلا لتركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ((كأنوا لا يتناهون عن منكر فعلوه أبئس ما كانوا يفعلون)) أما اعتزال الناس اعتقاداً بعدم صلاحهم، فهو كما يقال : آخر الدواء الكي ذلك أننا (حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً أو أطيب منهم قلباً ، أو أرحب منهم نفساً ، أو أذكى منهم عقلاً لا نكون قد صنعنا شيئاً كبيراً. لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة.

إن العظمة الحقيقية أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع. إنه ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العالية ، ومثلنا السامية ، أو أن نتملق هؤلاء الناس ، ونثني على رذائلهم أو أن نشعرهم أننا أعلى منهم أفقاً. إن التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر لما يطلبه هذا التوفيق من جهد هو العظمة الحقيقية) (٦).

وهكذا ... فبعد أن تتعهد المسلمة نفسها بالإصلاح فتلتزم السنة وتعض عليها بالنواجذ، تساهم بالدعوة إلى الخير بين النساء. وهذا واجب ديني تأثم إن قصرت به، مهما كان مستواها الثقافي، فتعمل بقدر طاقتها وإمكانياتها، تأمر بالمعروف بلفظ لين وقول لطيف، والله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ((وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)) [آل عمران ١٥٩] ، ترفق بمن حولها ، توقر الكبيرة وترحم الصغيرة ، ولا تنسى أنها صاحبة هدف جليل تسعى لتحقيقه بأسلوب يرضي الله تعالى ويؤدي للنتيجة التي ترجوها.

فكما يسعى أصحاب الأهداف الدنيوية لتحقيق أهدافهم، فيتحسسون مداخل نفوس من يتعاملون معهم، ليعرفوا كيف الوصول لغايتهم، يجب أن نكون نحن المسلمات أكثر اهتماماً بمعرفة من ندعوهم لتكون دعوتنا كما أراد الله تعالى: ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) [النحل ١٢٥].

٢- الإصلاح بين المؤمنات :

كما نجعل من زيارتنا مجالاً خصباً للإصلاح بين الناس ، فإن عمل الشيطان على إثارة العداوة بين المسلمات نزيلها بالإصلاح بينهم، فإن إزالة الخصام دليل سمو النفس التي تعمل على إشاعة المودة بين الآخرين، ليحل الوفاق محل الشقاق، والصلة مكان القطيعة، لذا كانت درجة من يصلح بين الناس أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة التطوع لا الواجبة .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إلا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا : بلى. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة». ويروى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: هي الحالقة: لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين».

ذلك أن الإفساد بين الآخرين يؤدي إلى القطيعة التي حرمها الشرع كما جاء في الحديث الشريف: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» (٧).

وقال صلى الله عليه وسلم منفراً من الشحناء والقطيعة ومبيناً سخط الله تعالى على المتقاطعين حتى يصطلحا: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا ثلاثاً» (٨).

فإن حصلت جفوة بين المسلمات نسارع إلى الإصلاح بينهن للتغاضي عن هفوة المخطئة، فإذا بالعيش صافياً بعد كدر، والوداد عاد بعد الجفاء.

والواجب أن تقبل عذر من تعتذر، لا أن تشيح بوجهها بعيداً عن أختها، إصراراً على مواصلة القطيعة، وعدم قبول العذر: إذ من شرار الناس من لا يقبل عثرة، ولا يقبل معذرة كما بين الرسول - صلى الله عليه وسلم:-

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال: إن شراركم الذي ينزل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رفته. أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله. قال: من يبغض الناس ويبغضونه، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله. قال: الذين لا يقبلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنباً، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال: من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره» (٩).

الهوامش:

- ١- الفتاوى ١٠ / ٦٦١،
- ٢- رواه البخاري، ومسلم.
- ٣- شرح صحيح مسلم ٢ / ٧٣،
- ٤- متفق عليه.
- ٥- الإصابة ٤ / ٤٤٢،
- ٦- أفرح الروح، لسيد قطب.
- ٧- شرح صحيح مسلم ١٦ / ١١٧١٢٢،
- ٨- شرح صحيح مسلم ١٦ / ١٧٧ - ١٢٢.
- ٩- رواه الطبراني وغيره، ينظر الترغيب والترهيب ٣ / ٣٩٤.

منبر الشباب

الشريعة الإسلامية لا الأعراف الجاهلية

بقلم: عبد الله سعيد بالحداد

كان للعرب في الجاهلية الأولى عادات وتقاليد منها ما هو حسن كالشجاعة والإقدام ومساعدة المحتاج وإغاثة اللهفان، ومهناها ما هو سيء كوأد البنات وشرب الخمر.

وحيثما جاء الإسلام أبقي حسننها وألغى سيئها ، فما كان من العرب ، أمام أحكام الإسلام إلا أن قالوا سمعنا وأطعناها.

ومما يلفت النظر أن المسلمين وكأنهم بدأوا يعودون لوضع العرب قبل الإسلام من حيث إعطاء عادات وتقاليد الآباء والأجداد تقديساً واحتراماً أكثر من أحكام الشريعة.

وفي هذه العجالة سنتطرق إلى بعض العادات والتقاليد المخالفة للشريعة ولكن أغلب المسلمين يمارسونها لا لشيء إلا أن آباءهم وأجدادهم كانوا يمارسونها.

ففي الخطبة مثلاً، نجد أن الخاطب حينما يود أن يرى خطيبته في بيت أهلها يقوم الأهل بمنعه بحجة أن هذا مخالف للعادات ويعرضهم لألسنة الناس الحداد ، مع أنه بإمكان الخاطب مشاهدة خطيبته خارج البيت ولكن في البيت ممنوع.

وحيثما نعود إلى الشرع ونستنتق حكمه في هذا ، نجد أنه يجوز أن يرى الخاطب خطيبته كاشفة الوجه واليدين وأن يتحدث معها بوجود محرم معهما.

وأيضاً كذلك في المهور، نجد عند ضعاف العقول من الناس أن شرف وكرامة الفتاة يكون في مهرها وعلاقته مع المهر علاقة طردية، فنجد بعض الآباء يغالون في مهر بناتهم لتوهمهم بأن هذا يزيد من رفعة ومكانة البنت ، في حين أن الشرع أوجب مهر الفتاة واعتبره ركناً من أركان الزواج لكنه حفز وشجع على أن يكون المهر بسيطاً لكي لا يكون عقبة في طريق الزواج.

وهناك أيضاً في حفلات الزفاف نجد عادة دخول العريس في ليلة زفافه مع عروسه في أبهى زينة لها أمام جمهور مختلط من الرجال والنساء ، وهي عادة دخيلة على المجتمع الإسلامي ، فقد قدمت إلينا عن طريق الغرب حينما أخذنا شرور الحضارة الغربية دون خيرها ، ناهيك أيضاً عن الإسراف والتبذير الذي يحدث في تلك الحفلات.

وحيثما نعود بالأمر إلى الشرع نجد أنه يحرم اختلاط الرجال بالنساء دفعاً لفتن كثيرة.

وأيضاً عادة دخول الزوجة على إخوان وأقارب وأصدقاء الزوج (هذا إن لم تكن الزوجة مكرهة على ذلك) بحجة أنهم مأمونوا الجانب.

وحيثما نحاول أن نتصح الزوج وتبين له الخطأ الذي هو فيه يجيبك : ماذا يحدث لو أنها جلست مع أولاد عمومتى نصف ساعة، لن تنتشق الأرض ولن تخر الجبال هدأ ، أتريد أن يقولوا عني أنني لا أستأمنهم على عرض؟! ماذا سيكون موقفى حينها ، يا أخي لقد وجدت آبائي هكذا وأنا أظن أنني سليم معافى.

وكأن لسان حال هذا الرجل يقول: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

وهل أهلك عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أبا طالب إلا خوفه من مقولة الناس بأن ابن عبد المطلب صباً وترك دين آباءه وأجداده.

ولكننا حينما نعود إلى الشرع لناخذ منه القول الفصل نجد أنه يحرم جلوس المرأة مع الأجنبي حتى لو كان معها محرم ، ولنا في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة فقد روى عنه أنه قال: «إياكم والدخول على النساء فقال رجل يا رسول الله: أفرأيت الحمى (أي أقارب الزوج) قال : الحمى الموت) رواه الشيخان.

وهكذا نجد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قرن الحمى بالموت لما يجب أن يحتاط منه أكثر من الأجنبي.

فعلى المسلم أن يرجع في كل صغيرة وكبيرة إلى شرع الله وأن يزن عادات وتقاليد الآباء والأجداد بميزان الإسلام لا العكس، فالإسلام لم يترك شيئاً إلا وقد بينه ووضحه فقال عز من

قائل: ((وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)) [البقرة: ٩٩]. وقال تعالى: ((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)) [المائدة: ١٦]. وإذا ما حكم الشرع بحكم غير ما تهوى الأنفس ومخالف للعادات فعليه أن يرضخ للحكم وأن يقول: سمعنا وأطعنا، لا أن يقول: بل نتبع ما ألقينا عليه آباءنا، وقرأ معي قول الله تعالى: ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ)) [الأحزاب: ٣٦]. واعلم يا أخي أن أتباع الشرع المخالف لهوى الناس قد يغضبهم في بادئ الأمر، ولكن يجب أن لا يغيب عن ذهنك حديث رسول الهدى: «من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرض عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه ، فيا أخي هل بعد هذا الحديث اختيار؟.

العالم الإسلامي بانتظار الأولي بقية

بقلم : أحمد زيدان

تعيش الأمة الإسلامية في حالة ضعف لا تحسد عليها ، وكي تنهض من الوهدة التي سقطت فيها لا بد لها من جماعة تأخذ بأيديها إلى برّ الأمان وشيطان الاستقرار ، وتأخذ على عاتقها مهمة التغيير الحضاري ، والقفزات النوعية بخصوص ذلك ، ونقل هذا إلى حيز التنفيذ ، وقد أرشدنا الله تعالى إلى هذا الطريق بقوله : ((فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)) [هود: ١١٣]. يصفهم الإمام القرطبي بقوله : «أصحاب طاعة ودين وعقل وتمييز» ، [تفسير القرطبي ١١٣/٩].

ويقول ابن قتيبة : «المعنى : فهلا كان من القرون ممن كان قبلكم أولو بقية ، والبعض قال أولو تمييز» ، [زاد المسير في علم التفسير ١٧٠/٤].

ويقول الإمام الطبري : «نو بقية من الفهم والعقل يعتبرون مواعظ الله ويتدبرون حججه فيعرفون ماله في الإيمان وعليهم في الكفر به» [تفسير الطبري ١٢ / ١٣٨].

ونخلص من هذه الأقوال إلى ضرورة توفر ميزات معينة في هذه الجماعة وذلك من فهم كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- مع إدراك كامل للواقع البشري الذي تحياه الأمة ، والتمييز بين ما يصلح وما يضر ، لا بد لهذه الجماعة من التعرف على سنن الله وتوظيفها لعمارة الأرض على مقتضى القرآن والسنة بالإضافة لمهمة تبصير الأمة بمكامن القوة وأماكن الخطر حتى تعرف الأمة من أين توتى.

وكما يقولون الرائد لا يكذب أهله. فكل جماعة إنسانية ترنو إلى تسجيل قفزات نوعية في الإقلاع الحضاري لا بد لها من صفوة رائدة تتصف بصفات معينة تخولها لهذه المكانة.

يقول المؤرخ أرنولد توينبي: «إنه لا بد لكل جماعة إنسانية من صفوة قائدة لكي تتقدم وتتحسن أحوالها ولا يتم تقدم إذا عدمتها الجماعة ، فكأنها خميرة التقدم والنهوض». ويقول : «إن مصير الجماعة كلها مرتبط دائماً بهذه الصفوة ، وأحوالها فإذا ظلت على هذه الحال من القلق والسعي والإحساس بمسئولياتها عند الجماعة تـكـوّن حولهم جماعة من الناس يسيرون في الطريق بعدهم وأطردت مسيرة الجماعة وطال عمر صلاحها».

كما أكد الأستاذ سيد قطب في كتابه القيم «معالم في الطريق» ، على ضرورة نهوض طليعة مؤمنة تنفذ الأمة.

وتأتي ضرورة وجود هذه العصابة من كون الله يحفظ بهم الأمة من غوائل الدهر وعاديات الزمن ، فهم وحدهم القادرون على إدراك الخطر الحضاري أو السوس الذي ينخر ببطء في المجتمع ، كما أنهم هم القادرون على تلمس القفز الحضاري وطرقه ووسائل تنميته وتشجيعه.

يقول الأستاذ رشيد رضا: «جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الأمم بظلمهم وإفسادهم في الأرض للإعلام بأنه لو كان فيهم جماعات وأحزاب أولو بقية من الأحلام والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك لما فشا فيهم ، وأفسدهم ، وإذن لما هلكوا ، فإن الصالحين المصلحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة الله ، كما أن الأطباء هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من فشو الأمراض والأوبئة فيها مادامت الجماهير تطيعهم فيما يأمرون به من أسباب الوقاية قبل حدوث المرض» [المنار: ١٢/٢٤٤].

ولم ينفع العالم الإسلامي هذا الغناء كله الذي يملكونه ليدفعهم إلى مصاف الأمم الحضارية والمدنية. فالصوفيون الخرافيون المنتشرون في أكثر بلاد المسلمين إن لم أقل في كلها لم يكن لهم أي تغيير حضاري يذكر أو يسجل بل يقفون عقبة كأداء في كثير من البلدان في وجه الحركة الإسلامية الحقيقية التي تنتشد التغيير الحضاري ، وأسجل مثال الصوفية هنا نتيجة كثرتهم الكاثرة التي لم تؤثر في مجرى إعمار أرض المسلمين على مقتضى الشريعة العراء. بينما قام أفراد معدودون أمثال ابن باديس والبنو والدهلوي والمودودي بأعمال إسلامية مازالت بصماتها وتأثيراتها حتى الآن. ولقد كتب الله تعالى في "الزبور" ، أنه لن يسلم حكمه لشخصيات مهزوزة لا تأخذ الكتاب بقوة ولا تثبت وجودها في عالم تصارع الأفكار والمبادئ عندما قال : ((وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)) [الأنبياء: ١٠٥].

إن أفراداً قدموا خدمات لأممهم أكثر من ملايين الأفراد ، لأنهم أدركوا عظم الخطر الذي يتهدد بلادهم وحجم المسؤولية الملقاة عليهم ، وهذا لا ينافي ما ذكرناه من ضرورة العمل الجماعي الذي يحقق نتائج أفضل ، فالعالم الذري اليهودي (اينشتاين) قدم لبني جلدته خدمات كبيرة في فرض وجودهم السياسي وإقامة دولتهم على تراب أرض فلسطين المغتصبة ، وكذلك (الأغاخان) الذي جعل من طائفته الإسماعيلية الباطنية جماعة قوية يحسب لها حسابها وإن تشييد جامعة الإسماعيلية في مدينة (كراتشي) الباكستانية ، لخير شاهد على ذلك ، كما أن نفوذه الاقتصادي في باكستان أمر خطير جداً.

ويزخر التاريخ الإسلامي بشخصيات تركت آثارها على الواقع الفكري الإسلامي والواقع العلمي حتى هذا اليوم ، وأكبر مثال على ذلك هو شيخ الإسلام ابن تيمية الذي مازالت الحركات الإسلامية تستشهد وتقتبس من أقواله أثناء تنظيراتها الفكرية والحركية ، وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم- : «يبعث الله على كل رأس مئة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» [رواه أبو داود وصححه الشيخ الألباني].

والخطوة الأولى في هذا المضمار هو أن تأخذ جماعة رائدة مسلمة على نفسها هذا العهد وتعمل من أجله ليل نهار ، ولا تتعجل في عملية التجميع والتكديس ، ولنا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة عندما قدم عليه وهو في طريق هجرته بعض الأعراب يريدون إشهار إسلامهم والهجرة إليه، نظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم- وكأنه تفرس فيهم وعرف عدم صلاحيتهم لأن يكونوا معه في دار الهجرة في هذه المرحلة الحساسة من إقامة دولة الإسلام فقبل

إسلامهم وأمرهم بالعودة إلى بلادهم، وعدم الهجرة، ذلك أن بعض الأفراد قد يكونون عقبة في تقدم العصبية المؤمنة (الأولو بقية) الذين يريدون التقدم النوعي المتميز وبمقدار ما تكون الدفعة الحضارية والزخم الروحي للانطلاق الأولى لهذه العصبية قوية بمقدار ما تطول فترتها أكثر وأكثر. ولا بد لهذه الفئة من شحذ فعاليتها، ودراسة الواقع المحيط بها والحضارات التي تعاقبت على الأمم حتى تنتفع بهذه الدروس ولا تضيف درساً مكرراً إلى الإنسانية، فهل تنهض هذه الفئة المخلصة التي يتحرق العالم الإسلامي لرؤيتها، هذا ما نرجو وما ذلك على الله بعزيز.

أدب وتاريخ

علة اهتمام الأمم بلغاتها

حبيب أبو قيس

إن وجود أمة قائمة ذات شخصية متميزة وكيان مستغل، وذات تقاليد وأعراف وطبائع نفسية وسلوكية مرتبطة تمام الارتباط ببقاء لغة هذه الأمة، بل مرتين بحياة هذه اللغة أو موتها ومحاذٍ لمستويات ازدهارها وضعفها.

إن الأمة عندما تفقد لغتها الأصلية وتهيمن عليها لغة أخرى غير لغتها فإن ما يحدث هو أن نجد بعد فترة من الفترات أمة أخرى لها كيانها وخصائصها التي تختلف عن تلك الأمة الأولى، فكلاهما أمتان مختلفتان وإن كانوا في الأصل نفس الأمة السابقة في الموطن الجغرافي والسلالة البشرية، وينطبق هذا إلى حد كبير على أفراد الجيل الذين يطراً عليهم هذا التغيير اللغوي ويعيشون في عصرين مختلفي اللغة، فهؤلاء وإن كانوا جيلاً واحداً، إلا أنهم يصح القول عنهم: إنهم كانوا في اللغة الأولى أناساً مختلفين عما هم عليه الآن من غير نسيان لما للبيئة الأولى ولغتها على وضعهم الجديد من تأثير على أي مستوى يكون.

إن اللغة ذات دلالة وسمة للأمة الناطقة بها، بل: "إن لغة الأمة دليل نفسياتها وصور عقليتها، بل هي أساير الوجه في كيانها الاجتماعي الحاضر، وفي تطورها التاريخي الغابر، لأن وراء كل لفظة في المعجم معنى شعرت به الأمة شعوراً عاماً، دعاها إلى الإعراب عنه بلفظ خاص، فوقع ذلك اللفظ في نفوس جمهورها موقع الرضى، وكان بذلك من أهل الحياة، وما معجم اللغة إلا مجموعة من المعاني التي احتاجت الأمة إلى التعبير عنها، فاخترت لكل معنى لفظاً يدل على الجهة التي نظرت الأمة منها إلى ذلك المعنى عندما سمته باللفظ الذي اصطلحت عليه، فلغة الأمة تتضمن تاريخ أساليب التفكير عندها من أبسط حالاته إلى أرقاها، يعلم ذلك البصير في أبنية اللغة وتلازمها ومن له ذوق دقيق في ترتيب تسلسلها الاشتقاقي" (١).

وتزداد أهمية اللغة وضوحاً عندما نتكلم عن ما يعرف بصراع اللغات.

الصراع اللغوي :

لا يعني هذا المقال بالحديث المباشر عن صراع اللغات أو أسبابه أو نتائجه، وحسبنا هنا أن هذا الصراع قائم، وله وجود في لغات الأمم ذات الاحتكاك الكثير والمباشر بأمة أو ذات لغات أخرى. وتزداد فاعلية هذا الصراع وحدته عندما تكون أمة من الأمم لها أطماع في أمة أخرى. ولا ريب أن الصراع اللغوي ينشأ من تجاوز أو معايشة لغتين واحتكاكهما ببعضهما، وسواء أكانت اللغتان لأمتين مختلفتين أو أمة واحدة، ومعنى هذا أن الشعوب ذات اللغة الواحدة ولكنها تتخذ لغة

أخرى في بعض شئونها الحيوية كتدريس بعض العلوم وبخاصة العلمية التطبيقية كالطب والهندسة وما إليهما في المعاهد أو الجامعات كشأن بعض البلاد العربية مثلاً ، فهذه الشعوب قد فرضت على نفسها صراعاً لغوياً كان بإمكانها دفعه لو استخدمت لغتها الأصلية في هذه المعاهد أو تلك المصالح الحيوية.

ولقد عرف الناس مغبة من أخذ العلم بغير لغة أمته من قديم ، وشاعت في الناس حكمة يرددونها : إن التعليم باللغات الأخرى ينقل بعض الأفراد إلى العلم ، ولكن التعليم باللغة الوطنية ينقل كل العلم إلى الأمة.

وتقع في شراك الصراع اللغوي أيضاً بعض الشعوب التي تفتح الباب لاستقدام أناس لا يتكلمون لغة من يستقدمونهم ليباشروا كثيراً من الأعمال الحيوية التي تقف على إحيائها شركات أو مؤسسات تستخدم أعداداً غفيرة من البشر ، فهذه الأفواج البشرية ستفرض صراعاً لغوياً مع لغة من وفدوا إليهم.

ولا ريب أن نزوح العناصر الأجنبية إلى بلد ما مع هيمنتهم لإدارة مصلحا هذا البلد مثلاً- مما يحدث هذا الصراع اللغوي كما هو مقرر عند علماء اللغة (٢) ، ولعل الأمة التي استخدمت هذه العناصر التي لا تتكلم لغتها تنجو من الصراع اللغوي لو استقدمت أناساً يتكلمون بلسانها ولا غرو أن الأمم التي توقع نفسها في مثل هذا الصراع اللغوي تعرض نفسها لداء خفي وتقع في خطأ يدل على قصر النظر.

الصراع اللغوي ليس بالأمر اليسر ، بل له أبعاده وخطورته العميقة ، ولا يشعر بحقيقة هذه الخطورة عامة الناس ، بل ولا كثير من المثقفين ، وإنما يفهم ذلك اللغويون الذين يعون ذلك جيداً ، ولذلك فلا غرابة لما نسمعه من أن أبا الأسود الدؤلي هاله ما رأى من ظهور اللحن في زمانه ، لقد شعر جيداً بالأمر فعده من الأهوال ، وهو كما رأى -رحمه الله- ، حتى أخذ يناشد الولاة ويستحثهم إلى وضع ما يدفع به ذلك الداء النازل بهم (٣).

إن الصراع اللغوي يحتاج إلى عشرات بل مئات من السنين حتى يتضح أثره وتتجلى خطورته ، إن هذا الصراع هو صراع بقاء ومحاولة هيمنة لإحدى هاتين اللغتين على الأخرى ، وهذه أمثلة يتجلى بها للقارئ آثار الصراع اللغوي ونتائجه الخطيرة الأثر في حياة الشعوب (٤).

لقد نتج عن غزو الرومان لوسط أوروبا وشرقها وجنوبها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وغيرها ، ذلك مع قلة الرومان المغيرين على هذه البلاد بالنسبة لسكانها ، وفي العصر الحديث عندما انتشر الغزو الأوربي لأطراف الأرض كوّنت دول أوروبا كتلاً بشرية في مناطق هجرتها ، وكثُر أفرادها مع قوة سيطرتها كان من ذلك أن نجم عن استعمار الانجليز لأمريكا الشمالية وأستراليا وبعض نواح في جنوب أفريقيا انتشار اللغة الإنجليزية في هذه الأرجاء الواسعة. ونجم عن استعمار الأسبان في أمريكا الجنوبية أن كانت الأسبانية لغة معظم دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وغيرها.

وإذا كان هذا الصراع السابق مرتبطاً بالصراع السياسي ، وكانت ظروفه تختلف عن صراع آخر أقل جراً ووسائل كتغلب اللغة العربية بفضل انتشار الإسلام على كثير من لغات الشعوب الآسيوية وعلى لغة الأقباط ولغة البربر في أفريقيا ؛ فإن هذا لا ينكر خطورة الصراع اللغوي الذي قد تحدثه عوامل أخرى غير سياسية أو حربية.

وإنما قلت عن تغلب العربية : إنه أقل جراً ووسائل ، لأن المسلمين لم يفرضوا لغتهم ويتشددوا في ذلك في البلاد التي فتحوها ، ولم يكن لهم من الوسائل العسكرية أو العلمية الحديثة ليستخدموا كل ذلك

في نشر لغتهم كما حدث في الاستعمار في العصر الحديث ، ولا ننسى أن العربية لما كانت لغة الدين كان ذلك دافعاً روحياً للشعوب الداخلة في الإسلام أن ترغب في هذه اللغة وتقبل عليها وتنشرها في بلادها.

والذي ينتج من غلبة لغة على لغة وحلولها محلها أن تذوب شخصية الأمة صاحبة اللغة المغلوبة تدريجياً في الأمة الغالبة ، وتصبح بعد أن كانت لها مقوماتها وخصائصها وهي على لغتها الأصلية ، تصبح مندمجة في أمة أخرى ، وقد فقدت ما كانت تحمله في ذاكرتها من الأفكار والمعتقدات وسائر المعاني المختلفة عما كانت تراها وتفهمها ، وتراها بعد ذلك بمنظار فكر اللغة الأخرى الذي لا بد أن يغير فكر اللغة الأولى في كثير من المعاني والتصورات .
ويأتي بعد هذه النتيجة أيضاً أن تُقطع الأمة التي استبدلت لغتها عن تراثها وأصلها ، فتنشأ أجيال هذه الأمة المقطوعة فاقدة الهوية ، لا تراث ولا انتماء ، وهذا مما يبسر احتواء هذه الأجيال وإذلالها والتحكم في توجيهها.

إن الجيوش العسكرية التي تتخذها الأمم لنشر سيطرتها وبسط سلطانها تسبقها جيوش لغوية ، تحمل هذه الجيوش لغة الأمة الغازية وتبشر بأفكارها وتذيع مبادئها وترسم شخصيتها ، ولقد كانت هذه الجيوش اللغوية عظيمة الأثر في بث فكرها والدعوة إليه بين القوم الذين وفدت إليهم ، فقبل أن تجيء الجيوش العسكرية استطاعت جيوش اللغة الأجنبية أن تهيء لها أتباعاً وأنصاراً يحملون فكرها ويدافعون عنه ويدعون إليه فوق فخرهم بهذه اللغة وميلهم إلى أهلها.

إن الحديث بلغة قوم يفضي إلى الميل إليهم والتعایش معهم -إن لم يكن هناك حصانة فكرية لمن يتحدث بها- ويقوى هذا الميل عندما تكون هذه اللغة لأمة أرقى وأقوى من لغة من يعيش معهم من أهل لغته. إن أصدق ما أدلل به على هذا الأمر ما كان من أمر الاستعمار الأوربي الحديث لكثير من أجزاء العالم وبخاصة العالم العربي ، والذي سبق إليه بغزو جيوشه اللغوية في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين(٥).

لقد تركزت هذه الجيوش في المناطق الخصبة لنموها من حيث سعة الانتشار والأبعاد السياسية ، أتت جيوش اللغة إلى مصر والشام على وجه الخصوص في شكل إرساليات علمية ، اتخذت صوراً كثيرة منها المدارس والمعاهد ، ومنها الكنائس والأديرة والمصحات وغيرها.

لم تأت جحافل فرنسا وبريطانيا العسكرية إلا وللغة الفرنسية والإنجليزية في مصر والشام شأن لا يمكن تجاهله ، يتحدث بها كثير من الناس ، ولها مناطق ومصالح لا يمكن العيش فيها إلا بلسانها ، ولقد طغى الأمر في بعض الفترات حتى كان من أفراد الأمة ومنتقفيها من يستنكف عن الحديث بلغة بلاده أو التعامل بلهجة أهله ، وينظر إلى لغته وثقافة أمته بازدراء كبير ، وسمع من متقفي الأمة العربية وعقلائها من صاح ورفع عقيرته في وجه هذه الظاهرة المزرية (٦).

وأصبح من أفراد الأمة من يباهي بالثقافة الفرنسية لأنه يجيد لغتها ، وآخرون ينافحون عن الإنجليزية لأنهم يلوكونها وقد تعلموا شيئاً من ثقافتها ، غدا كل منهم كأنما هو فرنسي أو إنجليزي وطبعوا حياتهم -في جوانبها المختلفة- بطابع الحياة الإنجليزية أو الفرنسية ، ولا شك أن ذلك يفصح للناس عن أثر اللغة البعيد الذي قد لا يظن بعضنا أنه يصل إلى نحو من هذا السلوك في حياة الإنسان.

ضرورة زيادة الاهتمام باللغة :

تأتي هذه الزيادة في أهمية اللغة العربية لارتباط هذا اللسان العربي بملة الحنيفية دين الإسلام ، ولا غرو فقد كانت خاتمة رسالات السماء إلى الأرض تفصح بلسان عربي مبين ، وقد كانت هذه الرسالة

هي الدين الذي أراد الله سبحانه ظهوره وهيمنته في الأرض على سائر الملل والأديان الأخرى ، بل حذر الله البشرية من العبودية بسواه ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)) فكان -كما هو معلوم- أن نزل القرآن بلغة العرب وبعث الله خاتم رسله وهو عربي الجنس واللسان ، وأوحى إليه من وحيه ما هو مماثل للقرآن من السنة ، وكان من ذلك الأصلان العظيمان لهذا الدين ، أعني القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكلاهما بلسان العرب ولغتهم ، فكان من ذلك الأصل والمرجع والقاعدة التي يُعَوَّلُ عليها في فهم هذا الدين في أصوله وأحكامه ، وعلم أسرارهِ وجزئياته ، وبخاصة عندما تضطرب المفاهيم وتقع الخلافات في شيء مما يتعلق بعلوم هذا الدين وأحكامه ، فالأصل موجود ولا مجال لبقاء النزاع ، ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...)) ولا مرأ أن بقاء هذا الدين متوقف على بقاء حياة هذين المصدرين الأساسيين ، وذهابه حاصل بفقدتهما ، ومن هنا يمكن القول :

أ- إنَّ أي محاولة للقضاء على اللغة العربية أو النيل منها ، على أيِّ وجه من أوجه النيل المتعددة ، سواء ما استترت تحت وجه الإصلاح ، أو تظاهر بادعاء التطوير ، أو التفجير اللغوي ، أو الدعوة إلى العامية كما حدث في عصرنا الحاضر أو غير ذلك ، كل ذلك سيصل في آخر الأمر إلى مس هذين المصدرين ، ومن ثمَّ القضاء عليهما أو مسخهما وتحريفهما عن الحقيقة التي جاءا عليها ، وهذا هو القضاء المبرم والهدم الحقيقي لإزالة هذا الدين من الوجود والتخطيط لاقتلاع جذوره أو قلب حقائقه. ب- إنَّ معرفة حقيقة هذا الدين والإمام بأصوله وفروعه والوقوف على أحكامه لا تكون دقيقة وصائبة إلا بالوقوف على أصول هذا الدين في لغتها الأصلية ، والتي جاء بها النبي الأمين صلى الله عليه وسلم- فكما هو معلوم لأهل اللغة أن الترجمة لأي عمل إبداعي وحتى غير الإبداعي تنقص وتعجز كثيراً عن الوفاء الكامل بما يحمله الأصل من دقة في أفكاره وأساليبه وإيماءاته ، فكذلك الحالة هنا ، مع العلم أن القرآن لم يترجم إلا معانيه كما يرى ذلك علماء الإسلام ، ولا يغيب عن البال أن هذين المصدرين في الذروة العليا من الفصاحة والبيان ، وقمة الإبداع اللغوي. ومن هنا ، من هذا الإبداع اللغوي العظيم لهذين المصدرين يتضح لنا القصور العظيم في أي ترجمة لمعانيهما أو لهما إلى لغات أخرى عن الوفاء بدلالات لغتهما العربية ، وذلك ، بلا ريب مدعاة إلى تحريف هذين الأصلين أو الوقوع في ذلك على أقل تقدير ، وتحريف الترجمة والفهم هنا هو تحريف لحكم شرعي أو استنباط فقهي ، مما قد لا يكون هو الحكم الشرعي الصائب ، أو ما جاءت به الشريعة المطهرة ، وهذا كله من نتائج الترجمة المباشرة لأي من هذين المصدرين. أما اعتماد هذه الترجمة لهذين الأصلين عند وجودها لتقوم مقام أصلهما ومن ثم الركون إليها في استنباط أحكام الشرع والاجتهاد في استخراج الأحكام ، فهنا تكون النتائج أشد خطراً وأبعد كثيراً عن مراد الشارع وما جاء به الدين ، وبذا يظهر لنا جلياً ما ذهب إليه علماء الأمة الإسلامية -رحمهم الله- من سداد الرأي وصائب الحكمة عندما وضعوا شرط الإمام الواسع والفهم الدقيق للغة العربية من ضمن الشروط التي لا بد من توفرها في المجتهد ، والذي قد بلغ درجة عالية في علوم الشريعة وفهم دقائقها وجزئياتها ، حتى يستخرج للمسائل التي لم يقف على جواب لها ما يهديه اجتهاده إليه (٧). ولا يذهب الفهم بالقارئ هنا إلى أن المقصود رفض الترجمة أو جهل قدرها وفائدتها ، وما تدعو إليه الضرورة منها ، أو أن الإسلام لا يُقبل ممن لا ينطق اللسان العربي ، فهذا لا يعنقه مسلم ، ولكن ما أريده هو التذكير ببعض مزالق الترجمة ، وعمق الطعنة التي تصيب الأمة ودينها من جراء ذلك. وثمة أمر آخر لا يمكن تجاهله حول أهمية اللغة العربية وهو أن تكون العربية لغة الثقافة الدينية للأمة الإسلامية ، فهي بذلك اللسان الذي يصح اجتماعهم عليه ، بعدما اجتمعوا على دين واحد ، ولا

غرو أن ذبوع اللغة العربية في الأمة الإسلامية كبير ويبشر بالمزيد ، بل إنه كان لسان كثير من الأمم الإسلامية قبل أن تحيق بها مؤامرات أعداء الإسلام ، والتي فرقت بين هذه الأمم في اللغة والثقافة حتى تصل إلى تفريق دين هذه الأمم ، ومتى تحقق انتشار اللسان العربي بدرجة أكبر في الأمة الإسلامية كان من أعظم العناصر وأكد الدعائم التي تحيا بها الوحدة الإسلامية وتزدهر ، وتندلل في سبيلها كثير من العقبات والعراقيل التي منيت بها الأمة الإسلامية.

الهوامش :

- ١- مجلة الزهراء المجلد الأول سنة ١٣٤٣ ، ص ٦٦ ،
- ٢- انظر : علم اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي / ٢٢٩ ، ط دار نهضة مصر .
- ٣- انظر : طبقات النحويين واللغويين للزبيدي / ٢٣ ،
- ٤- راجع لمزيد من ذلك : علم اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي / ٧٠ ، ٢٣٢ ،
- ٥- انظر على سبيل المثال : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، علي المحافظة / ٣٧ ،
- ٦- انظر مجلة الرسالة للزيات ، السنة الرابعة ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ،
- ٧- راجع : أصول الفقه ، محمد أبو زهرة ، ص ٣٠٢ ، ط. دار الفكر العربي القاهرة .

الجهاد الأفغاني أسطورة الإباء والفداء

شعر : محمد أمين أبو بكر

زَحَفَ الأَبَاءُ إلى الوغى فاستأصلوا ظَلَمَ العدوَّ وأحرقوا الطغيانا
ومواكبُ الأبطالِ في تلك الذرافاضتِ فِدَاءً يلهبُ الميدانا
خاضوا غمار الموتِ في وهج الجحيد م فمزقوا في الساحة الأوثانا
هذي الهدايةُ في شِعابِ جبالهم إخضوضرتِ وأضاءتِ الأزمانا
حملوا لواء الله وانطلقوا به نحو الجهاد فزلزلوا الكفرانا
جازوا براكيننا تزمجر في الوغى كانت لهم يوم اللقا ألحانا
حتى ثوى "الينين" في ظلم الخنايتجرع الآلام والخذلانا
ومضى "لكارل" الكفر يشكو عنده بعد اللقاء مخازياً وهوانا
من بعدما نفروا يكل ذئابهم علَّ الذئاب تمزق القرآنا
وجحافل الطغيان في تلك الربابلظى القنابل تلهم الأفنانا
والسادرون على وسائد نومهم عشقوا حكايات الهوان زمانا
حتى غدت دور النيام مقابراً منكبوبةً وثيابهم أكفانا
ضاعوا وطير الذلَّ في حلق فوقهم أكل النؤوم وأغضب اليقظانا
لكن آساد الهداية فجروا لهب الجهاد فجددوا الإيماننا
أبطالها بين الصلابة والتقى شبوا اللهيب وأضحكوا البركانا
قرعوا طبول الحق في درب الهدى فوق الجبال فرّوعوا القرصانا
أحيوا ببذلهم مسيرة فاتح (*) دفن المجوس وكفن الطغيانا

قحمت أسود الله تحت لوائه سود المخاطر تنصر الفرقانا
 لم تنحن الهامات فوق هضابهم رغم اشتداد الحادثات زمانا
 فالزهرة البيضاء أضحت خنجراً يُصلي الغزاة مذلة وهوانا
 والقمة السماء عادت قلعةً تردي الحقود وتقذف النيرانا
 والوردة الحمراء في وديانهم قذفت جحيماً يصهر الذوبانا
 أما البراعم في رباها إنها أضحت قنابل تملأ الميدانا
 لن يستمر الكفر رغم عناده في دار قوم بايعوا الرحمانا
 وهم - وقد رفعوا لواء محمد - كتبوا سطوراً تذهل الأكوانا

الهوامش:

(* إشارة إلى السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند من أفغانستان .

من أصنام الحداثة يوسف الخال

د. وليد الطويرقي

ولد يوسف الخال في طرابلس عام ١٩١٧ ، وتخرج كل من الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٤٤ ، وسافر إلى الولايات المتحدة ، حيث عمل في الأمم المتحدة ، وعاد إلى لبنان ليعمل في الجامعة الأميركية ، وأسس مجلة (شعر) عام ١٩٥٧ هو وشرزمة من أصحابه ، وفي عام ١٩٦٧ أنشئت دار النهار للنشر فانضم إليها مديراً للتحضير.

من مؤلفاته :

- ديوان الحرية ١٩٤٥ .
- مسرحية هيروديا .
- ديوان البئر المهجور ١٩٥٨ .
- قصائد في الأربعين ١٩٦٠ .
- الحداثة في الشعر ١٩٧٨ .
- علامات الأزمنة .

موقف يوسف الخال من اللغة العربية :

يدعو يوسف الخال إلى اعتماد لغة الكلام (العامية) لغة أدبية لأنها لغة عربية متطورة من اللهجات "الجاهلية" التي رافقت الفتح العربي ، وفي طليعتها لهجة قريش ، التي جعلها القرآن لغة الفتح ، ونموذجاً للغة العربية. [أسئلة الشعر / ٤٩].

ويدافع عن رأيه هذا بأسلوب لا يخلو من مزايدة وذر للرماد في العيون ، فيقول إن عدم الأخذ بلغة الكلام هو (من وحي المستعمرين وإسرائيل في الطليعة فهم يشجعون على التعلق بالفصحى لتعميق الازدواجية في الفكر العربي من جهة ، ولإبقاء العربي مشروطاً إلى حقائق ضبابية لا صلة لها بواقعه ، من جهة أخرى" (١) [أسئلة الشعر / ١٥٠].

ولسنا بصدد الرد على هذه الحجج الباطلة ، بل القصد هو عرض أفكار هذا "المبشر" وإلا فأبلغ رد عملي عليه هو اعترافه نفسه بفشل مشروعه في مجلة "شعر" حيث علل توقفها باصطدامها بجدار اللغة [جريدة الرياض، مقال لجهاد فاضل، بتاريخ ١٤٠٧/١١/٣٠].

ومما يدل على سوء دخيلته ، وبعده عن حقيقة ما يتباكي عليه من حرص على نهضة العرب وتقدمهم أنه كان يدعو لتأجيل كل نضال ضد إسرائيل حتى يغير العرب لغتهم من فصحي إلى محلية ، فقد كتب في أواخر أيامه :

"اللغة أكبر مشكلة بيواجهوها العرب ، هي أكبر من مشكلة إسرائيل ، لأن مشكلة إسرائيل مربوطة بمشكلة اللغة ، ومن دون حل مشكلة اللغة باعتماد المحلية ما بيتحرر العقل العربي ، وما يتقدم الإنسان العربي ، حتى يتغلب على مشكلة إسرائيل" (كذا) [النهار العربي والدولي ٢٥ / ١ / ١٩٨١].

وعبارة "التغلب على مشكلة إسرائيل" حمالة أوجه وهي مشكلة وملبسة ، شأن أسلوب الميشرين الثقيل الخبيث ، فمعناها غير معنى "التغلب على إسرائيل" فالتغلب على المشكلة يكون إما بتجاهلها ، وإما بالتعايش معها ، وإما بالمصالحة مع الطرف الآخر ، فأبي المعاني يريده يوسف الخال.

موقف يوسف الخال من التراث العربي :

إن موقف يوسف الخال من التراث العربي يوضحه صديقه أدونيس في كتابه (قصائد مختارة ص ٢٤٠) فيقول :

"التراث العربي عنده هو التراث الإنساني كله... إنه التراث الذي تكوّن على الأرض منذ القدم وتفاعل عبر المتوسط مع التراثات التي تشكلت بجملتها الحضارة الحديثة... وإن كان يوسف الخال يصدر في شعره عن المسيحية العربية أو الوثنية العربية أكثر مما يصدر عن الإسلامية العربية فلا يعني ذلك أن شعره غير عربي".

وهذا يوضح أن موقفه من التراث العربي موقف انتقائي ليس بمعنى انتقاء النافع الذي أجمع الناس على نفعه ، ورفض الباطل الذي ثبت بطلانه ، بل انتقاء ما يوافق أفكاره ولو خالف أفكار الأغلبية ، وهو يوضح ذلك فيقول :

"أنا معني جداً بتراثي العربي ، الذي لا تراث لي سواه ، وإنما أريد أن أغنيه وأعززه وأنقده وأفرزه ، وأرفض ما أرفض منه ، وأقبل ما أقبل ، وذلك لجعله أساساً حديثاً صالحاً لبناء حياة أفضل لنا ولأولادنا" [أسئلة الشعر / ١٥٠].

وعلى هذا فهو مع -اعتقاده بنفسه أنه فوق التراث برتمته ، يحكم عليه كما يشاء ، ويشرف عليه بنظرته المملوءة بالغرور والعجرفة والادعاء ، ويعطي نفسه الحق في رفض أي شيء وإثبات أي شيء ؛ فيبرز فكر الشذاذ من الذين يسميهم فلاسفة ومفكرين ، ويتجاهل فكر غيرهم الذي لا يتفق مع عقيدته النصرانية- يخلط خطأً شنيعاً ومقصوداً في تحديده لمعنى التراث ، كي يستبعد أي أثر ذي قيمة للإسلام في هذا التراث عن طريق إبراز بقايا الوثنية العربية والمسيحية العربية والمؤثرات الآتية عبر المتوسط !!.

اعتزازه بنصرانيته :

يصرح يوسف الخال بأنه سعيد أن يلقي وجه خالقه وفي يده اليمنى شعرية غيرت إلى الأفضل مسيرة الشعر العربي؛ وفي اليد اليسرى ترجمة عربية حديثة للكتاب المقدس أتاحت للألوف المؤلفة من

قراءه أن يخترقوا قدر الإمكان في المرحلة الراهنة جسد اللغة العربية القديمة الميت (كذا) إلى روح مضمونه الحي.

ويقول أيضاً :

"إنني كشاعر مسيحي، والمسيحية جزء من تراثي، إن لم تكن في جوهره وصميمه، والمسيحية مرتبطة ارتباطاً كيانياً عميقاً مع التراث الذي سبق التاريخ العربي في هذه البقعة من الأرض" [أسئلة الشعر / ١٥٠].

إن عبارته السابقة حول "اختراق جسد اللغة العربية الميت"، تشرح نظرتة إلى التراث العربي، وتوضح بجلاء أن ما يعده تراثاً هو كل شيء مخالف لعقيدة الإسلام سواء أكان أفكاراً منحرفة كانت تبرز بين الفينة والفينة عند بعض الفلاسفة أو المتصوفة، أو ما كان إشارة بعيدة أو قريبة إلى الفكر النصراني، فاللغة العربية كائن ميت، فإذا كتب بها شيء من أفكار ابن سينا والسهروردي أو الكتاب المقدس تحولت إلى جسد حي !.

على أننا لا نلوم يوسف الخال هنا على مسيحيته وحبها لها، ولكننا ننعي عليه هو وأنصاره قدهم على ثقافة غيرهم ووعيهم لها، وضيق صدورهم إذا رأوا أثراً إسلامياً -ولو باهتاً- في آثار غيرهم، فينقضون عليه بالشتم والقذف بالرجعية والتخلف والتعصب، ما الذي يجعل الإسلام والتمسك به تخلفاً ورجعية، بينما الاعتزاز بالتوراة والإنجيل والأساطير اليونانية تقدماً وتحضراً وحدثاً!!.

وكذلك ننسب إليه اعتزاز أهل الباطل بباطلهم دون حياء ولا خجل، بينما نرى كثيراً من مدعي الحداثة يخجلون من ذكر دينهم وكتابهم ((وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)).

"يتبع"

١- لقد أصبح هذا دأب كل من يتخذ موقفاً مناوئاً من الأسس الثقافية للمسلمين، فبالإضافة إلى الأسلوب الملتوي في الاستدلال والاحتجاج (الذي هو أسلوب المبشرين وتلاميذهم) يختم أدلته بأن ما يخالف ذلك يعد خدمة للاستعمار والصهيونية وإسرائيل، وهو كما ترى أسلوب دعائي رخيص إن جاز في الإذاعات والجرائد فلا يجوز على أهل العلم وأصحاب الفكر.

حقيقة دعوة ابن تومرت

د. حمد بن صالح السحيباني

تمهيد :

مني العالم الإسلامي منذ عصر صدر الإسلام حتى عصرنا الحاضر بظهور العديد من الدعوات والدول التي لبست ثوب الإسلام، واتخذته شعاراً ظاهراً لتحقيق مطامح ومطامع خفية تهدف إلى النيل من الإسلام وحرب المسلمين بشعار الإسلام واسمه، وما دعوات الرافضة، والقرامطة، والعبيديين، والموحدين إلا ضرباً لتلك الدعوات والدول على مدار التاريخ الإسلامي. وإذا كانت الدعوات والدول الثلاث الأولى قد كتبت عنها كثير من المؤرخين والكتاب المحدثين، فأبأنوا حقائقها، وكشفوا للناس زيفها وبطلانها؛ فإن دعوة الموحدين -التي أسسها ابن تومرت- كان نصيبها من الدراسات قليل (١)، ولهذا خفي على كثير من المسلمين حقيقتها، لاسيما وقد

سماها مؤسسها بدعوة الموحدين ، فظنوا بها خيراً ، ونسبوها إلى الصلاح والاستقامة(٢) ، علماً بأنها كانت خلاف ذلك كما يوحى بهذا تراثها الفكري وتاريخ مؤسسها وداعيتها الأول محمد بن تومرت ، وهذا ما دفعني إلى دراسة هذه الدعوة والتعرف على أسسها العقدية لبيان حقيقتها وكشف زيفها ، معتمداً في ذلك بعد الله سبحانه وتعالى- على أقوال ابن تومرت وأفعاله ، وما دونه لنا المؤرخون المعاصرون لتلك الدعوة ، حيث إن مؤلفات ابن تومرت وتلاميذه من أمثال البيديق ، وابن القطان ، وابن صاحب الصلاة موجودة بين أيدينا ، إضافة إلى أن الفترة التي ظهرت فيها دعوة الموحدين حظيت بوجود العديد من المؤرخين الذين عاصروا تلك الدعوة أو عاشوا قريباً منها ، فكتبوا عنها ، وهم شهود عيان لما كتبوا من أمثال المراكشي وابن خلدون ، وابن أبي زرع ، وغيرهم.

وسأنهج في دراستي لدعوة الموحدين أن أقوم أولاً بتتبع نشأة تلك الدعوة وبيان المراحل والأطوار التي مرت بها ، وموقف الناس منها ، ثم أخلص بعد ذلك إلى بيان أهم الأسس العقدية التي قامت عليها ، ومدى قربها أو بعدها من الأسس الإسلامية الصحيحة.

الاتجاه الفكري للدول الإسلامية التي قامت في شمال بلاد المغرب :

لعل من المناسب بادئ ذي بدء أن نبين الاتجاه الفكري للدول الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب الإسلامي -الشمال الأفريقي- منذ القرن الثاني وحتى القرن الخامس لنعرف مكان دولة الموحدين بينها ، والأرضية التي ظهرت فيها تلك الدعوة وأصبح لها كيان سياسي يحميها ، ذلك أنه بعد أن ضعفت قبضة الخلافة الإسلامية بالشرق على الشمال الأفريقي ظهر هناك العديد من الدول الإسلامية التي أعلن بعضها استقلالها عنها ، بينما بقي البعض منها موالياً لها ولأء سورياً ، وقد تباينت اتجاهات ومشارب تلك الدول حيث انقسمت إلى أربعة اتجاهات رئيسة هي :

- ١- الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغلبة والمرابطين ، والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها.
- ٢- الاتجاه الخارجي ويمثله دولتا الرستميين والمدرايين (٣).
- ٣- الاتجاه الرافضي ، ويمثله دولة العبيديين.
- ٤- الاتجاه الاعترالي ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

وبالإضافة إلى هذه الاتجاهات الرئيسية فقد كان هناك اتجاه خامس هو اتجاه دولة الموحدين والذي كان يجمع بين هذه الاتجاهات وغيرها من الاتجاهات الفكرية الأخرى ، إذ أن محمد بن تومرت مؤسس هذه الدولة استقى من جميع هذه المشارب بل زاد عليها ما يرى أنه يخدم ميوله وأهدافه ، ولهذا جاءت الأسس الفكرية لهذه الدولة خليطاً مضطرباً كما سنرى.

الأسس الفكرية لدعوة ابن تومرت :

لما كانت الأسس الفكرية -العقدية- لكل دولة أو جماعة أو فرد هي الموجه الحقيقي لحركاتها وسكناتها فإن دراسة تلك الأسس مطلب ملح قبل دراسة تاريخ الدولة أو الجماعة أو الأفراد.

ودولة الموحدين أول من وضع أسسها الفكرية هو محمد بن عبد الله ابن تومرت الصنهاجي ، ولد في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري ببلاد المغرب الأقصى ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة مولده(٤).

ادعى ابن تومرت النسب القرشي ، وأنه من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم- وقد أقر بعض المؤرخين هذا الادعاء(٥) ، لكن طائفة أخرى من المؤرخين أنكرت هذا الادعاء وقالت إن ابن تومرت دعيّ فيه فهو من هرغة إحدى قبائل المصامدة البربرية حيث عرف بمحمد بن تومرت

الهرغي (٦) كما قال بهذا الرأي من الكتاب المحدثين محمد عبد الله عنان -رحمه الله- ، إذ يرى أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة وثوب مستعار قصد من ورائها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي التي انتحلها أيضاً شعاراً لإمامته ورياسته (٧). ولا يشك المتتبع لتاريخ ابن تومرت في كذبه بهذا الادعاء وأنه إنما قال به ليتخذ جسراً يصل عن طريقه لأغراضه وطموحاته ، ويتأكد هذا إذا علمنا أن معظم المؤرخين الذين أثبتوا له هذا النسب إنما هم من تلاميذه ، أو من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحى من سلاطينها وأمرائها ، وبتأثير من نزعتهم العقديّة الباطلة.

حفظ ابن تومرت القرآن الكريم ودرس بعض العلوم الإسلامية في بلاد المغرب في صباه ، ثم ارتحل سنة ٥٠١ هـ إلى الأندلس ، ثم إلى بلاد المشرق حيث تنقل بين عواصمه الثلاث (بغداد) و (مكة) و (القاهرة) (٨) ، وقد أفاد من هذه الرحلة علماً غزيراً لاسيما في العلوم العقلية واللسانية (٩) ، حيث أعانه على ذلك ذكاؤه المفرط ومثابرته وهمته العالية (١٠).

بداية ظهور ابن تومرت :

كان وضع معظم بلدان العالم الإسلامي في مطلع القرن السادس الهجري مضطرباً فالخلافة العباسية بالمشرق قد دب فيها الضعف ، كما أن دولة العبيديين بمصر قد كرهها الناس بسبب غلو حكامها وأعمالهم العدائية ضد الإسلام والمسلمين ، أما بلاد المغرب والأندلس فتخضع لحكم دولة المرابطين ، وكانت قبضتها قوية واتجاهها اتجاه سني حيث كان يتولى أمرها آنذاك السلطان علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وكان سلفياً ورعاً مجاهداً وهذا ما جعل الطريق صعباً أمام ابن تومرت الذي بدأ ظهوره في بلاد المرابطين ، ولهذا جاءت سهامه مسلطة ضد هذه الدولة وسلطانها ، فبعد أن وصل إلى المغرب سنة ٥٠٥ هـ بدأ يدعو الناس إليه (١١) ، ولما كانت دعوته تقوم على أسس عقديّة يشوبها كثير من الغيش والانحراف فإنه لم يجرؤ في بادئ الأمر على إظهارها للناس صراحة ، ولهذا انتحل صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث يذكر البيهقي (١٢) -أحد تلاميذ ابن تومرت- أنه نهج هذا الأسلوب في بادئ الأمر ، وأنه كان إذا خشى بطشاً خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون (١٣) ، وهذا منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجأون إلى العبارات الموهية حتى لا تنكشف عقائدهم.

ظل ابن تومرت مدة عشر سنوات (٥٠٥ - ٥١٥ هـ) ينتقل بين أقاليم ومدن المغرب الأقصى لعرض دعوته على الناس ونشر أفكاره بينهم فكثرت أنصاره ومؤيدوه وذاع صيته بينهم وتعارف الناس به (١٤) ، فأضحى خطره يهدد كيان دولة المرابطين ، حينئذ استدعاه السلطان علي بن يوسف وسأله : ما هذا الذي بلغنا عنك؟ فأجابه ابن تومرت في قوة بأنه يطلب الآخرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن هذه مسؤولية الحاكم قبل غيره ، ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان علي بن يوسف حين سمع ذلك أطرق برأسه إلى الأرض ملياً ثم أمر الفقهاء بمناظرته واختباره (١٥) ، فلما ناظره تبين لهم حقيقة ما يحمله ابن تومرت من آراء ومعتقدات تخالف طريقة أهل السنة والجماعة ، فأوصوا السلطان بسجنه سداً للذريعة ودرءاً للفتنة ، لكن أحد المرابطين شفع فيه فأمر السلطان بإخراجه من مراكش ولم يسجنه (١٦).

أدرك ابن تومرت بعد ذلك المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين ، لاسيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف ، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مضمودة سنة ٥١٥ هـ وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته (١٧).

وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار فاختر منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته حيث شرع بتدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة ومن خلال تلك الدروس بث أفكاره بين تلاميذه ، وأخذ يعدهم إعداداً خاصاً ، فألف لهم كتاباً سماه كتاب التوحيد بلسانهم البربري قسمه إلى سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع ، وأمرهم بقراءة حزب واحد منه في كل يوم بعد صلاة الصبح (١٨) ، ويحتوي هذا الكتاب على معظم أفكار ابن تومرت والأسس العقدية لدعوته ، ولهذا يذكر ابن أبي زرع أن ابن تومرت قال لتلاميذه : من لا يحفظ هذا (التوحيد) فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز" (١٩).

وهكذا كفر ابن تومرت من لا يتعلم مبادئ دعوته ويعمل بها ولاشك أن هذا الشطط والمغلاة جعلت الكثير من اتباعه ينصرفون عن الأسس الإسلامية الصحيحة إلى ما يقول به ويدعو إليه فغالوا في تعظيمه لدرجة العبودية -والعياذ بالله-.

لما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين رأي توسيع إطارها المكاني فاختر جماعة من أصحابه أرسلهم إلى القبائل القريبة من بلاد السوس لاستمالة تلك القبائل للدعوة الموحدية (٢٠) ، وبعد أن اطمأن إلى قوة دعوته وإلى تمكنه من قلوب أصحابه أخذ يشوقهم إلى (المهدي المنتظر) "... فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه وقال أنا محمد بن عبد الله... ورفع نسبه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي وبسط يده فبايعوه.. ثم صنف لهم تصانيف في العلم منها كتاب سماه (أعز ما يطلب).."(٢١).

كانت هذه هي خطوات ابن تومرت في تمهيد الطريق وجهوده في تأسيس قواعد البناء قبل أن يدعو إلى مبايعته بالإمامة ويعلن قيام الدولة الموحدية ، وقد أعان ابن تومرت على اجتذاب المؤيدين في بلاد السوس ما كان يتمتع به أهلها من سذاجة وجهالة وادعاءه النسب القرشي فضلاً عما يتمتع به ابن تومرت من ذكاء وعلم وقدرة على التأثير والتنظيم (٢٢).

مبايعة ابن تومرت بالإمامة :

لما اطمئن ابن تومرت إلى قاعدته وحسن ولائهم له دعا الناس إلى مبايعته حيث يذكر ابن القطان أنه قام خطيباً فيهم ومما جاء في خطبته :

"...الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضي بما يشاء ، لا مرد لأمره ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً ، بيعته الله إذا نسخ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ، ونسبه نسب النبي.."(٢٣).

وبعد هذه الخطبة قام الناس فبايعوه بالإمامة وكان ذلك في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٥١٥هـ (٢٤).

وهكذا نرى كيف أن ابن تومرت لم يجرؤ على إعلان ذلك الشطط في دعوته إلا بعد أن وثق من ولاء عامة الناس له ، وفي هذا يقول ابن خلدون : «ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الإمام» (٢٥).

وقد جاءت مبايعة ابن تومرت إماماً للموحدين قرب مراكز دون تصد ومقاومة من قبل المرابطين أصحاب السلطة الشرعية هناك ، بل ودون إحساسهم بالخطر الداهم قرب عاصمتهم شاهداً على ضعف دولة المرابطين وقتذاك ، وعلى النجاح الكبير الذي حققه ابن تومرت لدعوته الناشئة.

أمضى ابن تومرت السنوات الثلاث التالية لسنة مبايعته في جهد متواصل وعمل دؤوب لدعوته حيث خاطب القبائل القريبة منه يدعوهم إلى الدخول في طاعته ، ونبذ طاعة المرابطين ، فاستجاب له بعض القبائل (٢٦) ، ولكي يوفر مزيداً من الأمن لدولته ودعوته غادر جبل ايجليز في بلاد السوس سنة ٥١٨ هـ إلى قرية تينمل ببلاد هرغة (٢٧) ، وقد جاء اختياره لها بسبب حصانتها لوقوعها على ربوة عالية في سفح جبل درن ، ولا يمكن الوصول إليها الا من طريق واحد لا يتسع لغير فارس واحد ، ويصف ابن القطان منعة تينمل بقوله : "يسد خللها أقل عصبة من الناس" (٢٨). ويبدو أيضاً أن ابن تومرت أراد من ذهابه إلى تينمل الابتعاد عن زعماء قبيلته ليتوقى مغبة تدخلهم في شؤون دولته الناشئة لا سيما وهو في مرحلة وضع الأسس الأولى لها. أصبحت تينمل عاصمة لدولة الموحدين الناشئة حيث قسم ابن تومرت أراضيها وديارها على أصحابه الموحدين ليسكنوا فيها ، كما بنى مسجداً وداراً له بينهم (٢٩) ، وفي تينمل وضعت أسس دولة الموحدين ومنها انطلقت جيوشهم ، كما وزع ابن تومرت مسؤوليات الدولة ووظائفها على أصحابه الموحدين حسب ولائهم لطاعته (٣٠) ، ويذكر المراكشي أن ابن تومرت بعد أن كثر لديه المؤيدون والأنصار ساهم بالمؤمنين وقال لهم : "ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصابة المعنيون بقوله -عليه الصلاة والسلام- : "لا تزال (*) طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله" وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيامة الساعة... فزادت فتنة القوم به وأظهروا له شدة الطاعة" (٣١) !!

هكذا تجرأ ابن تومرت على الله ورسوله فحرف الأحاديث الصحيحة وأقم دلائلها ليضل الناس فيلتفوا حوله ، وقد خفيت هذه الأباطيل على قومه في بادئ الأمر فأقبلوا على دعوته وتفاؤوا في خدمتها لاعتقادهم بأنه هو المهدي ، حتى قال قائلهم حيناً وقف على قبر ابن تومرت بعد مماته : سلام على قبر الإمام المجدد ومحبي علوم الدين بعد مماتها أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنيا سلالة خير العالمين محمد ومظهر أسرار الكتاب المسدد بقسط وعدل في الأنام مخلد (٣٢) هكذا أصبحت بلاد السوس بالمغرب الأقصى تغلي حماساً وولاءً لدعوة ابن تومرت لكنه توفي قبل أن يحكم البناء ويوسع إطار دعوته ، فقد وافاه الأجل في شهر رمضان ٥٢٤ هـ وكانت مدة حكمه حوالي تسع سنوات (٣٣) ، وقد ترك حرباً مشتتة بين أتباعه والمرابطين وكل من خالف دعوة الموحدين في أرض المغرب الأقصى ، كما خلف أتباعاً مؤمنين بدعوته محاربين لأجلها .

الهوامش :

- ١- لعل من أهم الكتب التي عنيت برصد حركة الرافضة والباطنية والعبديين وغيرها. كتاب وجاء دور المجوس لمؤلفة عبد الله محمد الغريب ، إلا أن هذا الكتاب على الرغم من ذكره لكثير من الدعوات الضالة فقد أغفل الموحدين.
- ٢- على الرغم من الهفوات الواضحة التي وقع فيها محمد بن تومرت مؤسس دعوة الموحدين فإن كثيراً من الكتاب القدامى والمحدثين قد انطلت عليهم حقيقة دعوة الموحدين فظنوا بها خيراً ، فمن المؤرخين القدامى ابن خلدون ، حيث حصر هفوات ابن تومرت بزلة واحدة هي موافقته للرافضة في القول بعصمة الإمام حيث قال : "ولم يحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم" (ابن خلدون : العبر ١١ / ٤٧١-٤٧٢).

أما من الكتاب المحدثين فمحمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي محققا كتاب المعجب للمراكشي حيث ذكرا أن كثيراً من المؤرخين المشاركة قد أنكروا ما جاء به ابن تومرت ونسبوه إلى الدجل والشعوذة ، كما تعقبوا دعاويه بالتفنيد والإبطال وقد عزا الكاتبان هذا الموقف من قبل هؤلاء المؤرخين المشاركة إلى سبب رئيسي هو " ..لأن المغرب الإسلامي.. لم يكن يعترف بشيء من الولاء للخليفة العباسي في بغداد ، ولم يدع له يوماً على منبر من منابر المغرب لا في الأندلس ولا في الشاطئ الأفريقي.. فما ملك يخلعون في سبيله طاعة الخليفة ويخرجون عن الولاء له ؛ ومن ثم كان رأي مؤرخيهم في شيخ الموحدين.. على أن الرأي مهما يختلف في شأن محمد بن تومرت فمما لا شك فيه أنه رجل من أهل الإيمان والفتنة ، كان له رأي في سياسة الدولة الإسلامية يستند إلى أساس من الدين.. " (المراكشي : المعجب ص ٢٧٦ ، حاشية رقم ٢).

هكذا كانت نظرة هذين الكاتبين لدعوة ابن تومرت وهي بلا شك نظرة سطحية حيث فسراها تفسيراً سياسياً مع أنها كانت تستند إلى أسس عقدية بحتة.

٣- لما تولي في دولة بني مدرار محمد بن الفتح بن مدرار أعلن في سنة ٣٤٢ هـ اعتناقه للمذهب المالكي . وقد انتهت هذه الدولة في عهده سنة ٣٤٩ هـ حينما قضى عليها العبيديون .

٤- انظر في تفصيلات هذا الخلاف كلاً من : المراكشي : المعجب / ٢٤٥ ، ابن الأثير : الكامل / ١٠ / ٥٧٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٥٣ ، ابن السراج : الحلل السندسية ١ / ٩٨٥ .

٥- من هؤلاء المؤرخين أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق في كتابة المقتبس من كتاب الأنساب ، ص ١٢ ، ابن القطان : نظم الجمال ، ص ٣٤ ، الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ١٢ ، ابن خلدون : العبر ٦ / ٢٢٦ .

٦- ممن قال بهذا الرأي ابن أبي زرع الفاسي في كتابه الأنيس المطرب ، ص ١٧٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ٤ / ٦٨ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٤ / ٧٠ .

٧- عصر المرابطين والموحدين / ١٦٠ .

٨- المراكشي : المعجب / ١٧٩ ، الزركشي : تاريخ الدولتين / ٤ .

٩- ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٤٦ ، ابن الأثير : الكامل / ١٠ / ٥٧٠ .

١٠- عبد الله علام : الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن / ٥١ ، سعد زغلول عبد الحميد : محمد ابن تومرت / ١٣ .

١١- الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية / ٤ .

١٢- البيذق : هو أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيذق (ت ق ٦) أحد تلاميذ ابن تومرت وأنصار دعوته ، ألف كتاب (أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين) وهذا الكتاب مهم في تاريخ الدولة الموحدية لأن مؤلفه شاهد عيان لكل ما كتب كما أن مؤلفه كشف جوانب غامضة في شخصية ابن تومرت ودعوته .

١٣- أخبار المهدي بن تومرت / ٢٢ .

١٤- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب / ١٧٤ .

١٥- الزركشي : تاريخ الدولتين / ٥ ، ابن خلدون : العبر ٦ / ٢٢٨ ، ابن قنفذ : الذهبي : العبر ٤ / ٥٩ .

١٦- المراكشي : العجب / ١٨٧ ، محمد السلماني : اللسان المغرب / ١٨٣ (مخطوط) .

١٧- ابن خلدون : العبر ٦ / ٢٢٨ ، ابن قنفذ : مبادئ الدولة الحفصية / ١٠٠ ، سعد زغلول عبد

الحميد : محمد بن تومرت / ٢١ ،

- ١٨- ابن القطان : نظم الجمان / ٤٦ .
 ١٩- الأنيس المطرب / ١٧٧ .
 ٢٠- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب / ١٧٦ ، المراكشي : المعجب / ٢٥٤ .
 ٢١- المراكشي : المعجب / ٢٥٤ .
 ٢٢- ابن خلدون : العبر / ٦ / ٢٢٨ ، سعد زغول عبد الحميد : محمد بن تومرت / ٢٧ .
 ٢٣- نظم الجمان / ٧٥ .
 ٢٤- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب / ١٧٦ ، ابن قنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية / ١٠٠ .
 ٢٥- العبر / ٦ / ٢٢٨ .
 ٢٦- المراكشي : المعجب / ٢٥٤ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب / ١٧٦ .
 ٢٧- ابن خلدون : العبر / ٦ / ٢٢٨ ، الزركشي : تاريخ الدولتين / ٦ .
 ٢٨- نظم الجمان / ٧٥ .
 ٢٩- ابن القطان : نظم الجمان / ٧٥ ، ابن خلدون : العبر / ٦ / ٢٢٨ .
 ٣٠- المصدرين السابقين .
 *- يلاحظ هنا أن ابن تومرت قد حرف الأحاديث الواردة في الغربية فأضاف إلى نصوصها ما يرى أنه يخدم فكرته وسنعالج هذا الخطأ في آخر هذا البحث إن شاء الله .
 ٣١- المعجب / ٢٧٦-٢٧٧ .
 ٣٢- المصدر السابق / ٢٧٧-٢٧٨ .
 ٣٣- البيذق : أخبار المهدي ابن تومرت / ٤١ ، ابن قنفذ : الوافي بالوفيات / ٢٧٣ .

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

انتصار الجهاد الأفغاني

الآمال والعقبات

ما من حدث هام على مدى الأعوام العشر الماضية هيمن على مشاعر المسلمين في أنحاء العالم وأذكى همهم وردّ لهم الثقة في أنفسهم وأحسهم بعزة الإسلام كما فعل جهاد المسلمين الأفغان ، وما من نبأ في عصرنا الحديث أدخل الغبطة إلى قلوب المسلمين ، وشفى صدورهم كما فعل نبأ سحب الروس لقواتهم من أراضي أفغانستان المسلمة وهي تجر وراءها ذبول الخيبة والذل مقرةً بإخفاقها التام حتى في تحقيق جزء من الأهداف التي من أجلها دنست أراضي أفغانستان ، وتبددت في ذلك أحلام الامبراطورية الروسية في جعل ذلك البلد المسلم جرماً جديداً يدور في فلكتها - على أقل تقدير - إن لم نقل ابتلاعه كلياً وضمه تحت رايتها الحمراء إلى جانب الجمهوريات المسلمة الآسيوية الكثيرة المنسية والقابعة تحت نير الشيوعية .
 وبدخوله عامه العاشر ، يكون الجهاد الأفغاني قد قطع شوطاً بعيداً في طريق الوصول إلى أهدافه النهائية بإذن الله- ، بل لعل الفترة المتبقية لفتح باقي المدن المحاصرة ، ومنها العاصمة كابول واقتلاع النظام الشيوعي العميل لم تعد تمثل سوى جزء يسير من مدة عقدٍ من الزمان من القتال الضاري المتواصل .

فالمجاهدون متفائلون في تخليص البلاد من دنس الشيوعية وإقامة دولة إسلامية -إن شاء الله- . إلا أنه ليظهر لمن أمعن النظر جيداً في مجريات الأمور على الساحة هناك أعداء الجهاد الكثر على اختلاف مللهم وعقائدهم ممن لا تكمن مصالحهم في وجود حكومة إسلامية سنية قوية في كابل سوف لن يدعوا الطريق مفروشاً بالزهور والرياحين للمجاهدين وقادتهم وهم يخوضون غمار المراحل الحاسمة من قتالهم المرير ، بل ولا حتى في المرحلة التي ستشهد قيام دولتهم -بإذن الله- ، لاسيما إذا ما أعدنا إلى الأذهان تآزر وتكاتف تلك القوى على مر السنوات العشر المنصرمة . وتبادلها الخبرات والتجارب المختلفة في كل ما من شأنه إضعاف المجاهدين والحد من انتصاراتهم .

ومكامن الخطر التي هددت وتهدد الجهاد لم تكن خافية يوماً ما على من دقق النظر في أحوال ذلك البلد وما جاوره من شعوب مختلفة ، فأفغانستان دولة محاطة بدول يجمعها قاسم مشترك ألا وهو محاربة الإسلام والإبقاء على المسلمين في حالة ضعف وتفرق ، كما أنه ليس في مصلحة أية دولة من هذه الدول قيام دولة إسلامية حقة من شأنها إيجاد موطئ قدم للمسلمين في ذلك البقعة من العالم . ولقد سبق لنا الحديث عن خطورة الدور الذي بالإمكان أن تلعبه تلك الدول في تحديد الصورة النهائية للجهاد ، وذلك في أعداد سابقة من البيان (١) ، وكنا قد شددنا القول على الدور الخطير الذي تضطلع به إيران الخميني للحيلولة دون انفراد المسلمين السنة في دولة مستقلة لهم .

ولقد وجدنا من الأهمية بمكان إيراد بعض مما كنا قد حذرنا إخواننا المجاهدين منه في الماضي لكي يتسنى للقارئ المقارنة بين ما جاء في تلك المحاذير وبين ما آلت وتؤول إليه مجريات الأمور وتطورات الأحداث هناك ، لعل ذلك يكون درساً لأصحاب الهمم العالية والنوايا الطيبة من أبناء هذه الأمة ، لاسيما الشباب منهم على وجه الخصوص ، لطرح الانقياد وراء العواطف والانفعالات جانباً ونهج طريق الدراسة والتحليل العميقين وعدم التهور من شأن العثرات والهفوات ، ومحاولة الاستفادة من أخطاء الآخرين ، ومما جاء في "رسالة مفتوحة للمجاهدين الأفغان" ، في العدد الأول : "ومن هؤلاء المكذبين الذين نحذر إخواننا المجاهدين من شرورهم ومكائدهم :

١- المنافقون .

٢- الباطنيون .

لا تنتظروا خيراً أو تعلقوا آمالاً على جند عبد الله بن سبأ اليهودي ، إنهم عون للطغاة المتجبرين ، وعيون للغزاة المستعمرين ، قلبوا صفحات من تاريخهم الأسود ترون فيه العجب العجاب من موالاته أعداء الله من التتار واليهود والصليبيين وعداوتهم لأولياء الله بدءاً بأبى المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- ، ومروراً بالشيخين أبي بكر وعمر ، وانتهاءً بسائر الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- ، أسألوا إخوانكم الذين اكتنوا بنيرانهم وشرورهم في بعض بلدان العالم الإسلامي ، ولا تصدقوا أقوالهم ووعودهم فمن صفاتهم الغدر والكذب ، ولن يتورع هؤلاء الباطنيون عن التعاون مع الشيوعيين ، كما أنهم لن يقصروا في استغلال إخوانكم وبذل المحاولات من أجل زعزعة إيمانهم وتشكيكهم بأصول دينهم" .

وفي موضوع "جهاد المسلمين الأفغان يمر بأخطر مراحلها" ، الذي نشر على صفحات العدد السادس ، جاء تحت فقرة "أين مواطن الخلل" ما يلي :

١- الباطنيون الرافضة :

"لا تظنوا أن اشتراكهم (الرافضة) معكم في مجلس الشورى ومجلس الوزراء سوف يساعد على وجود هدنة بينكم وبينهم ، إنهم إن قبلوا بهذا الاشتراك فسيكون - أي الاشتراك بحد ذاته - ميداناً

جديداً من ميادين صراعهم معكم ، فأنتم في نظرهم كفار ناصبة ، وليس بينهم من يعتقد بأننا مسلمون عصاة على الأقل ، وسوف يتعاونون مع السوفييت والأميركان واليهود ضدكم.. وسوف يجعلون من أفغانستان "لبناناً" آخر بل أشد من لبنان... فخذوا حذرکم يا إخوة ، وصراعكم مع هؤلاء الغلاة لن يكون أقل من صراعكم المرير مع الشيوعيين.. واعلموا حق العلم أنهم لم ولن يقبلوا أن يقوم للمسلمين السنة دولة في أفغانستان ، ولا نشك أنكم سوف تخوضون معركة معهم ، وسوف يفرضون عليكم هذه المعركة فرضاً ، والله أعلم ، وسوف يجدون من يتعاون معهم من ضعاف النفوس وطلاب الزعامات وبعض أصحاب الاتجاهات الباطنية فانظروا ما تفعلون" .

وهاهو عام ونصف العام يمضي على كتابة تلك السطور وإيران وعملاؤها والآخرين مشمرون عن ساعد الجد لضمان إقحام أنفسهم في المعادلة النهائية في أفغانستان ، فإيران التي تتكلم اليوم باسم المسلمين في أنحاء العالم ، حتى ليظن الأوربي في بلاد الغرب أن الخميني لدى المسلمين هو بمثابة البابا لدى النصارى ، إيران هذه لا يروق لها زوال منصبها هذا ، كما أن مجاورتها لدولة إسلامية سنية يعني بالضرورة فضحها على الملأ وكشف أساليبها في تضليل أبناء الشعوب الإسلامية لا سيما الشباب منهم ، هذا إلى جانب كون أي حكومة سنية في كابل ستكون عمقاً لأهل السنة المقهورين في إيران ، وقل مثل ذلك بالنسبة لروسيا الجاثمة على صدور الجمهوريات الآسيوية المسلمة حيث بخارى وسمرقند وطاشقند موطن كبار أئمة هذه الأمة .

إن فرائص قياصرة الكرملن في موسكو لترتعد لسماع كلمة جهاد أو حكومة إسلامية في أفغانستان لا لشيء سوى ليقينهم بأن تحقق ذلك سيعني انفلات قبضتهم الحديدية عن تلك الشعوب المسلمة ، أما في الهند فيراقب الوثنيون هناك بقلق بالغ تطورات الأحداث في أفغانستان لصالح المجاهدين وما سيجره ذلك عليهم من متاعب من قبل المسلمين الهنود البالغ عددهم (١٥٠) مليون والذين يتوقون إلى ذلك اليوم الذي تقوم فيه دولة الإسلام في تلك البقاع لتخفف عليهم - إن لم نقل تنقذهم مستقبلاً - من هيمنة السيخ والهندوس .

أما باكستان فشأنها لم يعد ذاك الذي كان عليه إبان حكم ضياء الحق ، فعلى الرغم من أن الحكومة الجديدة هناك لم يبدر منها بعد وبشكل واضح ما يعوق مسيرة الجهاد في أفغانستان - وذلك راجع إلى حد كبير إلى النفوذ القوي الذي مازال يحتفظ به كبار ضباط الجيش الذين كان قد عينهم ضياء الحق - إلا أن معرفة الخلفية الفكرية والثقافية التي تنحدر منها رموز القيادة والشعارات والمبادئ التي أطلقتها وتطلقها قبل وبعد استلامها السلطة ، كافية لتحديد الصورة التي سيرتسم بها موقفها المستقبلي إزاء مسألة قيام دولة إسلامية في أفغانستان ، فإننا إذا قلنا أنها سوف لن تلتزم موقفاً عدائياً صريحاً من النظام الجديد فإننا في الوقت ذاته نقول وبلغة الجزم إنها لن تكون من المتحمسين لقيامه ، ولا حتى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، أياً كان ثوبها ، أما علاقات باكستان الإقليمية الجديدة مع الهند وإيران وتوافق وجهات نظرها معهما فهي مما لا يُبشر بخير ، وهي دليل آخر على ما نقوله ، فما إن استلمت بي نظير دفة الحكم حتى انقلبت كل العقبات التي كانت تعوق قيام علاقات أفضل مع الهند إلى مصالح مشتركة ، وتحول الجمود الذي كان يسود علاقات البلدين إلى دفء .

إن محور موسكو كابل طهران نيودلهي يحيط بأفغانستان إحاطة السوار بالمعصم ، فهؤلاء جميعاً على يقين مما قد يفجره هذا الجهاد من طاقات كامنة لدى شعوب المنطقة المسلمة وهم على دراية مطلقة من أن انتصار المجاهدين الأفغان إنما هو انتصار لكل المسلمين ، وأنه انتصار عالمي وليس محلياً ، وأنه صراع عقائدي بين حق وباطل .

وهذا الذي قلناه في الماضي ونكرره اليوم ليس ضرباً من الخيال أو رجماً بالغيب ، فالتنسيق بين أجهزة مخابرات تلك الدول لتحقيق كل ما من شأنه عرقلة الجهاد على مدى أعوامه العشر لم يعد مسألة تحتاج إلى برهان ، فكم من مؤامرة انكشفت كانت تستهدف طعن الجهاد وقادته من وراء حاكنتها أيادي المجرمين في تلك الدول ، وما حادث تحطم طائرة ضياء الحق عنا ببعيد .
أما في الفترة الراهنة ، فإن الدور الذي تمارسه إيران وتهدف من خلاله إلى كسب موطن قدم لها في حكومة المجاهدين عن طريق أتباعها بات أوضح من أن يحتاج إلى دليل ، فقد أسفرت طهران هذه المرة عن وجهها الحقيقي ولم تعد تجديها كما يبدو أساليبها الخفية ، ووصل تدخلها المباشر في شؤون المجاهدين إلى درجة محاولة فرضها لعدد مقاعد مجلس الشورى ، التي يجب أن يحصل عليها الشيعة - والذين لم يكن لهم دور يذكر في الجهاد - وزعمها أنهم يمثلون ثلث مجموع السكان ، والأكثر من ذلك وقوف سفيرها لدى إسلام آباد يتهدد ويتوعد قادة المجاهدين إن هم لم يمنحوا الشيعة (١٢٠) مقعداً .

وفيما يلي نورد جانباً من تهديدات السفير الإيراني الموجهة للشيخ سياف كما ذكرتها نشرة (لهيب المعركة) الصادرة في بيشاور نقلاً عن وكالة البيان الصادرة بتاريخ ١٣ / ٢ / ١٩٨٨ : «هدد سفير إيران لدى إسلام آباد بأن الحكومة الإيرانية سوف لن تعترف بحكومة المجاهدين إذا لم يحصل الشيعة على (١٢٠) مقعداً في مجلس الشورى فرد عليه الشيخ سياف - المتحدث الرسمي لائتلاف المجاهدين - : إن أردتم مالا حتى تعترفوا بحكومتنا فسنحاول أن نوفر لكم ذلك لتعترفوا بنا أما إذا أردتم قطعة من أرض أفغانستان لتعترفوا بنا فلن نعطيكم هذه الفرصة ، وأنتم تعرفوننا جيداً . ثم قال السفير: إذا لم تنصفوا الشيعة مع السنة في الشورى فسنقوم بأعمال تخريبية داخل أفغانستان ، فرد الشيخ سياف : إننا لن نعطي الشيعة في إيران أكثر مما قررناه وذلك ليس بضغط من أحد علينا ، وهذا القرار حقنا وبرضانا ، فقد قررنا ما رأيناه حق ولا دخل لكم بذلك ، وتابع رده قائلاً : ثم إنكم لماذا تتدخلون هكذا وليس ذلك من حقكم ، ولماذا تتكلم بهذه الحدة معنا وأنتم تعرفون من نحن ، وكرر الشيخ سياف تحذيره للسفير الإيراني بأن لا يعاود التدخل في شؤون المجاهدين الداخلية» .
وهكذا تثبت الأيام ما كنا قد ذكرناه من أن إيران وأتباعها -سيراً على خطى ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي - لن يتورعوا في رفع السلاح ومقاتلة المجاهدين وها هو سفيرهم ينطق بذلك وما ذاك على سجلهم تجاه المسلمين بغريب .

أما موقف الحكومة الإيرانية الرسمي تجاه الوضع في أفغانستان فيتلخص في :

- وجوب الاعتراف رسمياً بأن الشيعة يشكلون نسبة ٣٠% من مجموع السكان .
- جود احتلال الشيعة لما لا يقل عن ٢٥% من المناصب الوزارية .
- إعطاء الشيعة حكم ذاتي كامل في الأقاليم التي يشكلون أغلبية فيها .
- منح علماء الشيعة حق النقض بشأن القرارات التي تتعلق بهم .

إن إيران تجاهر بأعلى صوتها لوقوفها وراء شيعة أفغانستان الذين لا يتجاوزن نسبة ١٠% من مجموع السكان ، أما السنة في إيران - الذي يجاوزون ضعف نسبة الشيعة الأفغان - فما من صوت لا في داخل إيران ولا خارجها ينبئنا بأحوالهم ولا بأخبار تمثيلهم بالبرلمان الإيراني .
إنه كلما خطى المجاهدون خطوة جديدة باتجاه قطف ثمار تضحياتهم ، ازدادت مكائد الأعداء واشتد غيظهم ومكرهم ، فما أحوج المجاهدين إلى الحذر واليقظة أكثر من أي وقت مضى لما يحيط بهم من مؤامرات وأشرار ، ليست هذه الأيام القلائل المتبقية -بإذن الله- أهون على سلامة الجهاد وقطف ثماره مما مضى فكل متربص بهم الدوائر وكلهم يغیظه ظهورهم .

إننا لعلى ثقة أن المجاهدين الذين استطاعوا الاستقلال بقرارهم على مدى الأعوام العشر الماضية أن يفوتوا الفرصة على أعدائهم وعلى كل من تسوّل له نفسه التدخل في شؤونهم وإملاء رغباته عليهم ، وما ذاك إلا من خلال نبذ الخلاف والاتحاد والتأزر ضد عدوهم ، وما النصر إلا من عند الله .
اللهم انصر المجاهدين على أعدائك أعداء الدين .
١- العددان الأول والسادس .

الانتفاضة

من وجهة نظر العدو

عندما انطلق الشعب الفلسطيني الأعزل في انتفاضته في مواجهة عساكر اليهود المدججين بالسلاح، طلع قادة اليهود بتهديدهم ووعيدهم من أنهم سيضربون هذه المرة بيد من حديد، وسيسحقون الانتفاضة ويستأصلونها من جذورها وأنهم على يقين من أن "أعمال الشغب" غير المجدية هذه سوف لن تلبث أن تنطفئ في غضون أيام معدودة ، كما توجه الزعماء اليهود بالنصيحة إلى الفلسطينيين من أجل وقف أعمالهم تلك التي لن تحقق لهم أي هدف مهما صغر ، وأن هذه الانتفاضة من المستحيل أن تؤثر في إسرائيل وقوتها .

وبعد انقضاء ما يزيد على ستة عشر شهراً على تلك التصريحات والتهديدات ، فإن الانتفاضة مازالت مستمرة وبنفس الاندفاع الأولى إن لم تكن أشد ، على الرغم من كثرة الضحايا الذين سقطوا بالرصاص اليهودي ، وبالرغم من كل المآسي التي لحقت بالشعب الفلسطيني طوال تلك الفترة فما زال ذلك الشعب بكل فئاته ، شبابه وشيوخه ونسائه وأطفاله ، واقفاً راسخ القدمين ، يداً واحدة يرمي اليهود غير أبيه بعددهم ولا عدتهم .
ولنا - في هذا المقام - أن نلقي نظرة مماثلة على الطرف الآخر من معادلة الانتفاضة هذه حتى نرى الصورة الواضحة لما يجري على أرض فلسطين .

وإلى القارئ الكريم طرفاً من تصريحات أولئك القادة والضباط والمفكرين والعساكر ، ولكن بعد مرور ستة عشر شهراً من عمر الانتفاضة ، اقتطفناها من بعض الصحف والمجلات العالمية ، ونبعها بتعليقات موجزة لمراسلي هذه الصحف ممن وقفوا على جانب من الأحداث هناك :
"إننا في مقاومتنا للانتفاضة نعمل على تآكل طاقات الجيش البدنية والفكرية" .

يوش ساريد ، عضو في الكنيست - مجلة التايم ١٩٨٩/١/٣٠

"إنه من غير الممكن القضاء على الانتفاضة ، ذلك أنها تعبر في جوهرها عن كفاح أمة" .

دان شومرون ، رئيس الأركان الإسرائيلي - الإيكونومست ١٩٨٩/١/٢٨

"إن بمقدرة دولة إسرائيل التغلب على خمسة جيوش عربية، إلا أنه ليس بمقدورها التغلب على الانتفاضة" .

موشي قعوز ، بروفييسور في الجامعة العبرية -التايمز ١٩٨٩/٢/١

"إن العنف الذي نستخدمه ضد الأهالي يُذكي لدى الفلسطينيين روح الإحساس بالقومية ، ويقوي من شأن العرب ، في حين أن إسرائيل أخذة بالضعف" .

جنود إسرائيليون - الإيكونومست ١٩٨٩/١/٢٨

"إنها (الانتفاضة) تمزقنا إرباً وتقوي العرب ، الحل السياسي هو المخرج الوحيد الذي ينقذنا من هذه المهانة" .

جنود إسرائيليون - مجلة التايم ١٩٨٩/١/٣٠

"إنني كإنسان أشعر بالإنهاك بسبب الانتفاضة ، إنها تحطمني" .

جندي إسرائيلي - مجلة التايم ١٩٨٩/١/٣٠

"ما من شيء قد التهم قلب المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - منذ غزو لبنان - مثلما فعلت الأشهر الأربعة عشر الماضية من القتال المر ضد الأطفال وحجارتهم" .

"في العام الماضي صدرت توجيهات إلى الجنود :

بضرب المتظاهرين .

إسقاط الحجارة عليهم من طائرات مروحية .

ضربهم بالقنابل المسيلة للدموع .

ضربهم بالأعيرة المطاطية والبلاستيكية .

إلا أنه ما من واحد من تلك الأساليب أدى مفعوله في إيقاف الانتفاضة ، حتى إن بعضاً من أعضاء

حزب (اليكود) أخذوا يشككون في جدية أية إجراءات جديدة" .

"إن الجيش لا يواجه هزيمة عسكرية ، بل هزيمة معنوية" .

ماك جيري-مجلة التايم

"لاخلاف في مدى الإحساس بالقلق والاحباط المترابدين اللذين تواجههما إسرائيل في مواجهتها للانتفاضة" .

"يبدو أن الآمال في وضع نهاية للانتفاضة في أوساط الجيش قد انهارت" .

مراسل الايكونومست

الجزائر .. سقوط الاشتراكية

صوّت الشعب الجزائري يوم ١٩٨٩/٢/٢٣ على دستور جديد للبلاد ، وكان أهم ما في هذا الدستور إسقاط لفظة "الاشتراكية" التي كانت مفروضة فرضاً ، كما كفل الدستور الجديد -في ما كفل - حرية الرأي وحرية المراسلات والاتصالات الخاصة بكل أشكالها ، وكذلك كفل حرمة المساكن وعدم انتهاكها أو تفتيشها إلا بأمر قضائي مكتوب .

ولاشك أن ذلك مما يفرح به المسلمون في كل مكان ، ولكن العبرة ليست في النصوص

المكتوبة ؛ وإنما العبرة في التطبيق العملي لهذه النصوص ، فكم من الدساتير من يشيد بالحرية ويعتبرها أساس حق المواطن ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون حبراً على ورق .

ومن أجل انتهاك الحريات ، والتسلط على رقاب الناس لا يعدم المتسلطون وسيلة ينفذون بها ذلك

تحت أنواع كثيرة من التسويات والذرائع ، ويضربون بالدساتير وموادها عرض الحائط .

والمشكلة مشكلة أخلاقية في الأساس ، بل مشكلة خراب عقائدي وفراغ مبدئي . وما لم يصلح

هذا الخراب ، ويسد هذا الفراغ بعقيدة صالحة فإنه لا الدساتير المكتوبة ولا الإجماع عليها يحل المشكلة .

فمن الذي يضمن أن لا يتحول الفساد الذي كان يقترف في ظل النظام الاشتراكي إلى فساد يمارس في ظل نظام يتجه إلى الرأسمالية؟ فالفساد هو الفساد مهما تستر ، وبأي لون ظهر ، ومشكلة المفسدين أنهم أينما تميلهم الرياح يميلوا ، وبما أن هذه الفترة فترة إفلاس للاشتراكية : الحقيقة والمستوردة المزورة ؛ فإنه من المرجح أن ينقلب هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسبحون بها بكرة وعشياً إلى لعانين لها كاشفين لسوءاتها . وإذا أردنا دليلاً على ذلك فما حدث في مصر في عهدها الاشتراكي والانفتاحي يشكل النموذج .

إن المخرج الحقيقي من هذا العناء المتعدد الجوانب الذي تعانيه هذه الشعوب هو أن تستمد حكوماتها شرعيتها من عقيدتها ودينها ، وتقتبس ضمانات العدالة فيها من مبادئها وتراثها ، فإن المنطق الصحيح ، والتجربة العملية أثبتت أن هذه الشعوب لن تحترم شيئاً يأتيها من شرق أو غرب ، ولن تدين بالولاء لأساليب مستوردة يفرضها عليها أذنان الاستعمار وخدم أعداء الإسلام . والولاء الذي نقصد ليس الخضوع الدليل لجبروت التسلط ، فهذا ولاء كاذب غير مضمون العواقب ، ولكن الولاء النابع من القلب الذي ينتج عنه التوافق المنتج ، والتطور المبدع بين الشعب والسلطة .

بأقلام القراء

من غرائب الصحافة العربية

عبد الحميد سعيد

بينما كنت أتصفح بعض المجلات العربية إذ شد انتباهي ظاهرة غريبة أحسبها جديرة بالوقوف قليلاً ، ذلك هو الأسلوب ونمط الحوار الذي يسلكه مندوبو تلك المجلات في لقاءاتهم ومقابلاتهم الصحفية مع الشخصيات المختلفة .

إن القارئ ليلمس ذلك البون الشاسع بين مقابلة وأخرى - على صفحات المجلة الواحدة - من جهة طبيعة الأسئلة التي تغيرها المجلة وكيفية طرحها بل وحتى المستوى الخلفي الذي يظهر به مدير المقابلة . ففي الوقت الذي تحاور فيه المجلة شخصية إسلامية - على وجه الخصوص - تجد الصحفي يتفنن في صياغة حوارهِ وبالشكل الذي يسيء إلى تلك الشخصية كما أنه لا يألو جهداً لإثارة كل ما من شأنه الانتقاص من ضيف المقابلة ، وليس ذلك نابعاً في ظني من موقف تقفه هذه المجلات تجاه رجال الدين بشكل عام ، بسبب النهج العلماني الذي تسير عليه مثلاً ، فإنك تجد وجه المجلة الآخر مشرقاً وهو يحاور شخصية دينية مثل البابا شنودة الذي ينال أسمى الألقاب خلال المقابلة وينعت بأحسن النعوت التي تبرز على أنه رجل الدين المثالي ، وهو كذلك بالنسبة لهم . إننا ندعو الصحافة العربية ألا تكيل بمكيالين ولا تزن بميزانين .

وراء كل عمل دافع

عبد الله حماد حامد الجهني

إن الإنسان يتعلم إن كانت لديه رغبة في التعلم ، وكانت لديه القدرة ، وأتيحت له الفرصة لذلك وقدم إليه الإرشاد فيما يتعلم ، غير أن الرغبة والقدرة والفرصة والإرشاد لا تجدي إن لم يكن لدى المتعلم ما يدفعه إلى التعلم إذ لا تعلم بدون دافع .

إذا عرفنا هذا فمن السهل أن نعرف سبب تفوق تلميذ متوسط الذكاء على تلميذ آخر أذكى منه ، إنه الدافع .

فالدافع من أهم العوامل التي تساهم في التربية بوجه عام والتعلم بوجه خاص . فالتعليم الناجح هو التعليم القائم على إشباع دوافع التلاميذ وحاجاتهم ، وكلما كان الدافع قوياً زادت فاعلية التعليم أي مثابرة المتعلم عليه واهتمامه به ، ويتسم السلوك الصادر عن الدافع بالنشاط والاستمرار .

وتقسم الدوافع الى قسمين :

فطرية : كالجوع دافع للأكل ، والعطش دافع للشرب ، والتنفس دافع للحياة .

ومكتسبة : كالسيطرة وتوكيد الذات دافع إلى الظهور والغلبة ، ودافع التملك والادخار ملحوظ في المجتمعات الرأسمالية .

وللدوافع ثلاث وظائف في عملية التعلم هي :

أ- أنها تضع أمام المتعلم أهدافاً معينة يسعى لتحقيقها .

ب- تمد السلوك بالطاقة وتثير النشاط .

ج- تساعد على تحديد أوجه النشاط المطلوبة لكي يتم التعلم وتستغل هذه الدوافع من قبل المربين بعد معرفة شخصية كل متعلم .

فالمتعلم المادي مكافئة مالية تكون دافعاً له بأن يضاعف جهده ، والوعد برحلة من أكبر الدوافع الاجتهادية لدى الأشخاص ، وتخفيف مدة السجن عن السجين من الدوافع للانضباط ، ومن هذا المنطلق يجب على الدعاة والمربين معرفة أهم دافع في الوجود وهو الدافع الذي جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتحمل أذى الكفار الذي لا يمكن تصوره ، وهو الذي دعا ذلك الصحابي أن يلقي بتلك التمرات من يده ، ويقدم نفسه في سبيل الله ، وهو الذي دفع جميع السلف إلى تعلم العلم والعمل به ذلك الدافع هو الإيمان وحب الله ورسوله .

فحري بكل داعية أن يجتهد بزرع هذا الدافع في نفوس الناس بشتى الطرق وبكل الوسائل حتى يعود للأمة مجدها .

* ومن الأخ محمد عبد الرحمن العريفي جاءتنا هذه المساهمة :

يا غافلاً تتمادى غداً عليك يُنادى

هذا الذي وعظوه وخوفوه المعادا

هذا الذي لم يقدم قبل الترحل زادا

مكتبة البيان

إعداد : محمد الحسيني

١- (حول التفسير الإسلامي للتاريخ) للأستاذ محمد قطب الناشر : المجموعة الإعلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ٢٧٩ صفحة .

وهو كما يقول المؤلف : "وهذا الكتيب لا يمكن بطبيعة الحال أن يتسع لدراسة مستوعبة للموضوع ، إنما هو بالأحرى دعوة للمختصين ليقوموا بهذه الدراسة ، وأن يكون في الوقت ذاته دعوة للمؤرخين المسلمين أن يعيدوا كتابة التاريخ البشري من زاوية الرصد الإسلامي المتميزة" .

وقضية التفسير الإسلامي للتاريخ ما زالت في إطارها النظري الذي لم تتميز معالمه ، وهذا الكتاب لبنة في محاولة هذا التفسير ، والذي ما زال ميداناً بحاجة إلى الدراسة والمناقشة.

٢- (موقف الدين من العلم) د. علي فؤاد باشكيل : كتب في التركية وترجمه إلى العربية أورخان محمد علي ، دار الوثائق - الكويت ١٤٠٥ هـ ، فيه ردود على من ينكر أهمية الإيمان للناس في حياتهم ونقد لبعض الأفكار الغربية.

٣- (الحدائث في منظور إيماني) د. عدنان رضا النحوي، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨، دار النحوي للنشر والتوزيع الرياض، (١٦٨) صفحة.
يناقش الكتاب قصة الحدائث وأنها مذهب فكري أدبي قادم من الغرب أو صرعة من صرعاته، وما أكثر مذاهبه وصراعاته الأدبية والفكرية نتيجة الضلال الذي يعيشه، ثم يورد نماذج من المقلدين لهم مثل أدونيس، وكمال أبو ديب، وعبد الله الغزالي، وينقل نصوصاً من أقوالهم وترتبط الحدائث بالماركسية أو بالتصرف الغنوصي، ويدعو الكاتب في النهاية إلى تفهم المنهج غلا إسلامي وفهم الواقع فهماً صحيحاً.

٤- (القضية الإسلامية في سياسة الشرق الأوسط) تأليف: آلن تايلور الولايات المتحدة ١٩٨٨
١٩٨٨، (١٥٠) صفحة.
من القضايا التي اهتم بمناقشتها قضية فشل الأنظمة القومية اللادينية في المنطقة والمشكلات التي تقابل البحث عن البديل الإسلامي.

الصفحة الأخيرة

أين القدرات الفكرية؟!

هناك أمر ملحوظ بوضوح شديد، وهو عزوف أهل العلم والفكر عن مهمتهم التي لا يستطيع أن يقوم بها غيرهم، وهي التوعية والقيام بأمر التبيين، وبكلمة مختصرة: النزول من الأبراج العاجية ، والانخراط بين الناس ، وقيادتهم وتبني مشكلاتهم ، والإحساس بشعورهم ، ومعالجة قضاياهم .

إن الذي يجعل أهل العلم يحجمون عن ذلك أمور هي في ظاهرها حجج قد تكون مقبولة ، ولكنها في حقيقتها ليست إلا حججاً مصطنعة تأخذ أكثر من نصيبها من الاعتبار ، وتتخذ تكأة للضعف والنكوص والانسحاب من الواقع .

إن كثيراً من أهل الفكر يتعللون بفقدان الحرية ، أو ضيق الوقت ، أو بالاستغراق في مهام أخرى... صحيح أن هناك موانع وعوائق في مجال النشر والكتابة، ولكن المؤمن المصمم الكيس الفطن لا يعدم وسيلة يوصل بها أفكاره ، إذا صح العزم وخلصت النية ، وكثير من الناس يفهمون الحرية فهماً مجتزأً كأن يتصوروا السماح لهم بسبب هذا وتجريح ذاك ؛ دون أن يكلفوا أنفسهم ضرب المثل للعمل الإيجابي والجهد المثمر وكيفية أن ننجز أمراً مهماً كان صغيراً ، ودون أن ننجر في الإثارة والغليان ولا نحقق شيئاً .

وكذلك مسألة ضيق الوقت ، فلو نظر الشاكون من ضيق الوقت إلى كثير من الأعمال التي تضيق بها أوقاتهم لوجدوها لا تستحق أن يشغل الإنسان بها وقته ، ولأزالوا من طريق العمل المثمر المبني على خطط مرسومة يُحاسبُ عليها ، فيثاب ويكافأ من نفذها في وقتها ، ويعاقب ويقصي من قصر في تنفيذها .

نزولاً إلى الساحة ؛ فالساحة فارغة ، واهتماماً بالأجيال الإسلامية ؛ فالأجيال متعطشة وتركاً للكسل والترهل والاستئمامة إلى الفتن والشهوات ، فهي مرتع وبيل لم تجن منه الأمة الإسلامية إلا السير إلى الوراء ، وسعيّاً في ركاب العلم النافع الذي يبني ولا يهدم ، وبعداً عن أساليب الإثارة فهي مضيعة للوقت ، ومجال تتسلل منه الفتن بشتى أنواعها،
ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

تمت بحمد الله
